

شَرْرِي فُلَيْجِي

الناس^ك والآخرون

قصص مختارة من الأدب العالمية

منشورات دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، ١٩٤٧

جميع الحقوق محفوظة

الناس والآخرين

للكاتب الايطالي ايليو فيتوريني

امتطى الرجل دراجته ، ووضع المرأة أمامه ، واتجه بها شطر ساحة
كافور .

— الى اين تقودني ؟

— الى المكان الذي اقام فيه .

— أهو بعيد من هنا ؟

— على مقربة من ساحة سامبيون .

أسندت إليه المرأة إحدى كتفيها ، وأراحت ظهرها على صدره .

— ماذا بك ؟

— اني افكر .

— بم تفكر ؟

— بهذا الشتاء ، وبكل شتاء آخر ، بزمنا كله .

— أليس الزمن معنا ؟ انه لم يضع .

كان شعرها يتلاعب بين القبعة التي تعتمر بها وبين عنق قميصها ،

فالتقط بأسنانه خصلة منه . وكانا قد اجتازا شارع بونتاشيو ، وحاذيا

الحديقة حيث يتألق الشتاء في وحدة الاشجار الكبيرة العارية .

فنهف

— ما اجمل هذا الشتاء !

— أصبح انه اجمل شتاء شهدته ايطاليا ؟

- أجل ، منذ سنة ١٩٠٨ .
- منذ الشتاء الذي ولدت انا فيه .
- منذ الشتاء الذي ولدت فيه !
- كيف تعرف متى ولدت ؟
- ألسنت انت التي اخبرتنى ؟
- يسؤني اني قلت لك ذلك .
- لا ارى مبرراً لاستيائك . ولم تستأين في الواقع ؟
- لما احسه اليوم !
- ألم يكن هذا الاحساس بخامرك يوم أنبأتني بتاريخ مولدك ؟
- كانت تساورني حينذاك عاطفة اخرى ، فاشعر بمرور غريب
- لكوني اكبر منك سنّاً .
- اني احب ان تكوني كذلك ...
- أما انا فأتنى ، اليوم ، لو كنت اصغر منك ...
- السنت كذلك بالحقيقة ؟ انك اوفر شباباً .
- أتمنى لو اني اصغرك بعشرة اعوام على الاقل .
- السنت كذلك بالحقيقة ؟ بل انك لتصغرينني بأكثر من عشرة
- اعوام . انت ما تزالين فتاة صغيرة .
- أتمنى لو انك تكبرني بكثير من السنين .
- واني لكذلك ... أنا ابوك ايضاً . بل انا جد لك !
- انك لا تكبرني ولا بيوم واحد .
- انا اكبر منك بقرن كامل .
- كلا .

- ولم لا ؟ لقد شهدت الشتاء الذي ولدت فيه .
 - كلا . انني انا التي جعلتك تولد . لقد ولدت انت لانني اردت
 انا ذلك . لقد ولدت انا اولاً ... ثم اردت ان تولد أنت ايضاً ...
 لانني لم اشأ ان احيا في عالم لا تعيش فيه انت .
 صمتت هنيهة ، ثم استطردت :
 - ولكن لنسرع الآن .
 - أجل يا بورت .
 رنت اليه ، لأول مرة منذ انطلقت بها الدراجة ، وحدقت به ،
 وقالت له :

- أتستطيع أن تدعوني : بورت !
 - أجل يا بورت ، ولم لا أستطيع ذلك !
 - وانت ، من انت ؟
 - أنسيت من انا ؟
 - ماذا تدعى الآن ؟
 - كما ادعى دائماً ...
 - ماذا يسميك رفاقك الآن ؟
 - ليس لي بالحقيقة اسم صحيح .
 - قل لي ، كيف يدعونك هذه الابام ؟
 - بين رقم ٢ .
 - بين رقم ٢ ؟ اني لا أستطيع ان ادعوك بهذا الاسم .
 - ألم اقل لك انه ليس لي الان اسم صحيح !
 - لقد كان لك في الماضي اسم كبقية الاسماء .

— كنت ازاول يومذاك عملاً آخر .

— لماذا استبدلته بآخر ؟

— أكنت تؤثرين أن لا استبدله ؟

— اني أخاف هذا العمل الآخر !

ضغط ين رقم ٢ فجأة على المكبح ، ووضع قدمه على الارض ، وقال ، وكانا قد بلغا ساحة ساميون :

— انزلي .

— ماذا حدث ؟ هل وصلنا ؟

— كلا ، لم نصل بعد .

كان ينظر من فوق رأسها ، وهي ما تزال على الدراجة فنظرت هي ايضاً ، فطالها جلال الشتاء بين صفين لا حد لهما من الاشجار العارية ، وبدت لهما من خلال النور الشفاف ، على بعد متني متر منها ، سيارة نقل واقفة في منتصف الطريق ، ورجال سود متجمعون حولها وفي ايديهم عصي تلمع كما يلمع زجاج سياراتهم .

قال ين رقم ٢ : انها دورية !

فوثبت برت الى الارض ، فقال :

— كلا ... اصعدي ...

كان ثمة رجال يقتربون ، وكأنهم قادمون من الافق ، عبر ذينك الصفيين من الاشجار الكبيرة ، وكانوا جميعاً يحملون عصياً تلمع . وقد ادركت برت ان هذه العصي هي بنادق ، ومشاهدت رجلاً ذا قبعة كبيرة يتقدم الى منتصف الطريق ، في قلب ذلك الصباح المنير ، متلفتاً حوله عند كل خطوة بخطوها ، وهو يهز بيده سوطاً يصفر ويتلوى كافي .

واستوت برت الى الدراجة وهي تواقب ذلك الرجل ، كيف يصرخ في الرجال الذين معه ، ويضرب الهواء بسوطه الاسود .

قال بن رقم ٢ : لتتابع سيرنا حتى زاوية هذه الكتلة من المنازل ، ثم نتعطف نحو أول شارع ونعود الى الراء . وسار بدراجته متمهلاً .

وكانت ساحة سامبيون ، باستثناء هؤلاء الرجال السود ، خالية ، تحت شمس الشتاء ، وقد اغلقت جميع المقاهي والمتاجر فيها ، وأوصدت جميع أبوابها ونوافذها ، وساد السكون خرائبها الحرساء .

انقضت ثلاثون ثانية طويلة حتى بلغ بن رقم ٢ بدراجته الزاوية التي اتجه اليها ، وأنفق خمس ثوان اخريات حتى وصل الى الشارع الذي يقصد ، وحينئذ صرخ الرجل ذو السوط الاسود .

قال بن رقم ٢ لبرت : لا تخشي شيئاً ، ولا تخافي اذا ما اطلقوا النار .

وانطلقت الدراجة في الشارع بأقصى سرعتها ، فبلغت الزاوية الثانية في ثوان معدودات . وكان يبدو كأن المدينة بأسرها ليس فيها سوى ذلك الصوت المتكسر ... ذلك الضرب من الهواء يصدر عن صاحب السوط الاسود الذي كان لايفتا يصرخ دون انقطاع . وفي اقصى الشارع كان ثمة رجال آخرون مسلحون بالبنادق .

وفي نهاية الطريق المتفرعة من ذلك الشارع والتي اراد بن رقم ٢ ان يعود منها الى الراء ، كان ينتصب أيضاً رجال سود يتصدون ببنادقهم . ولكن لم يسمع أي طلق ناري ... لم يسمع سوى ذلك الصوت المتكسر ، صوت الرجل ذي السوط الاسود ، وقد بدأ يتعد

شيئاً فشيئاً .

قال بن رقم ٢ : هذا الرجل هو الكلب الاسود ، ... هل رأيته ؟

— اجل . ولكن الطريق مسدودة من هنا ايضاً .

— لا خير في ذلك . سنجتاز الآن الساحة من جديد ، ثم نذهب

الى المنزل .

— أهر منزلك أنت ؟

— هو منزل أصدقاء لي . انه ملجأ أمين .

أطلق الدراجة على أقصى سرعتها ، وانعطف بها من جديد ،

فاجتازت بها الساحة وبلغا الشارع المقابل . ولم تنظربوت الى أين

يقودها هذا الرفيق .

فتحت لها الباب امرأة طويلة القامة ، نحيلة القد ، بيضاء الشعر ،

فحيها بن رقم ٢ قائلاً :

— نعمت صباحاً يا سلفا .

فأجابت المعجوز الجميلة : نعمت صباحاً . من يصحبك ؟ أهي رفيقتك ؟

— انها رفيقة لي .

— يا للخسارة ! انه دائماً مع رفيقات له ، ولكني لم أره مع

رفيقته . أليس لهذا الرجل امرأة ؟ أليس له رفيقة ؟

نظرت بورت الى بن رقم ٢ حائرة ، ولم تجب . واستطردت

المعجوز الجميلة قائلة :

— ادخلا ... ادخلا ... أيجب ان ادعكما منفردين ؟ ألدبك ما

تقوله لي ؟ ان ولدي بعيدان ، وسأذهب أنا بعد لحظة واحدة . وفي

استطاعتكما ان تبقياً حتى الغد . أليس لديك ما تقوله لي ؟

قال بن رقم ٢ : لقد تعرضنا لخطر عظيم ولكننا خرجنا منه سالمين .

فقلت المعجوز : لقد سمعت صراخ الكلب الاسود .

ثم أضافت : حقاً ، انه لمن المؤسف ...

— ما هو الشيء المؤسف ؟

أجابت وهي تنظر الى بورت :

— من المؤسف انها ليست رفيقتك . لقد اعجبني .

— اعجبتك ؟ انها لتعجبني أنا ايضاً .

وتابع ضاحكاً :

— انها رفيقة باسلة .

صاحت المعجوز الجميلة : اما انا فاني اتحدث كأمرأة . انك لا

تنظر اليها ابداً كنساء .

وظلت تنظر الى بورت بجرارة ، بينما لزمت هذه الصمت ، لا

تجيب ولا تتحدث ، كأنها لم تتكلم في حياتها مرة واحدة . واعترض

بن رقم ٢ على قول المعجوز فتأملت :

— اجل ، اني ليسرني ان تكون رفيقتك . اكون سعيدة لو

كانت كذلك ، حتى لو لم تكن رفيقة . افضل ان لا تكون سوى

امراً ، ان لا تكون سوى رفيقتك . أصبح انها ليست رفيقتك ؟

— ولكن لماذا يا سلفا ؟ لم تريد ان تكون رفيقتي ؟

ونظر الى بورت بعينيه اللتين كانتا تبرقان . ولبثت بورت حاملة

مطرقة ، تحت نظراته ونظراتها ، تحت نظراتها ، لم تقل شيئاً حتى

بعينها .

— أتري ذلك مستغرباً ؟ انه ليس غريباً البتة . فنحن لم نرك يوماً مع رفيقة لك ، واننا نرغب في ان تكون لك رفيقة ما . ألا نستطيع ان نتمنى ذلك ؟

أجالت نظرها بين الرجل والمرأة واستطردت قائلة :

— الا نستطيع ان نتمنى ذلك لرجل عزيز علينا ؟ ان الرجل ليكون سعيداً حينما تكون له رفيقة . فهلا نستطيع ان نتمنى لرجل عزيز علينا ان يكون سعيداً ؟ اما انا فاني لأرغب من كل قلبي ان تتمتع بنصيب وافر من السعادة .
— شكراً لك يا سلفا ، ولكن ...

— ولكن ماذا ؟ ألا نستطيع ان نتمنى لك الخير ؟ نحن انما نعمل ليكون الناس كلهم سعداء . ولعمري ، أي معنى يكون لعملنا اذا لم يؤد الى هذه الغاية ؟ من اجل هذا وحده نعمل نحن . أليس من اجله نعمل ؟

قال ين رقم ٢ : نعم ، من اجل ذلك نعمل .

ورددت هي : أليس من اجل ذلك نعمل ؟

كانت تجيل انظارها باستمرار بين الرجل والمرأة ، مرددة بجرارة :
— يجب ان يكون الناس سعداء . اي معنى يكون لعملنا

اذا لم يستطع الناس ان يصبحوا سعداء ؟

ثم قالت : اجيبي انت اينها الفتاة ، أليكون لنضالنا معنى ؟

فقالت برت : لا ادري !

اجابت وكأنها لم تحب ، ورفعت رأسها لحظة ولكن كان يبدو

كأنها لم ترفعه . ولبث صامتة مطرقة ، بينما ظلت العجوز الجميلة تردد :

— أياكون لعلنا كله اى معنى ؟

اجاب بن رقم ٢ : كلا ، يا سلفا ، لا احسب انه يكون له معنى .
وقالت هي مؤكدة : لن يكون له معنى ... بل لن يكون
حينئذ لآي شيء في العالم أي معنى ! أليس كذلك أيتها الفتاة ؟
أجابت برت : لا أعلم .

وتساءلت العجوز : أم ترى يكون ثمة معنى لشيء ما في هذا العالم ؟
فقال بن رقم ٢ : كلا ، لا اظن ذلك .

واستطردت هي بإصرار : أياكون حينئذ معنى ما لصحفنا
السرية ، وللقنايل التي نضعها ، ولكفاحنا المستميت ؟ ورجالنا الذين
اعدموا ، أياكون لاستشهادهم معنى ؟ أيبقى في هذه الحالة معنى
لشيء ما في العالم ؟

— كلا ... كلا !

— أم يكون ثمة معنى للاعداء الذين نخاربهم ! كلا ، كلا . يجب
ان يصبح في ميسور الناس جميعاً ان يكونوا سعداء . وليس لشيء
ما أي معنى اذا لم يستطع الناس ان يكونوا كذلك . ليس من
اجل هذا وحده نرى ثمة معنى لكل شيء في العالم !

— نعم ، من اجل هذا وحده .

— أجيبي أنت أيتها الفتاة ، أليس من أجل هذا وحده ؟

رافق برت الى محطة الترام ثم تبع القاطرة بهمة . وكان يراها
من وراء الزجاج ... يرى يدها التي فتحتها واسندتها على الزجاج من
اجله ، ويرى عينيها المضيئتين تتسعان في نظرة ساجية يشهد من

خلالها صفاء الشتاء . ثم حياها مودعاً ، وذهب من ناحية اخرى .
 ظل ، حتى الظهر تقريباً ، يروح ويحيى على دراجته ، في مختلف
 الشوارع ، بين بورتا نوبا وبورتا فينيسيا . وقبل الساعة الثانية عشرة
 بربع ساعة ، توقف أمام احدى نوافذ باعة الصحف ، فتقدمت منه
 امرأة كانت تشتري جريدة ، وسألته عما به ، وفتحت حقيبتها في
 اثناء ذلك ، فادخل يده فيها واخرج منها مسدساً وضعه بسرعة في
 جيب معطفه .

فقال الرجل : هجوم !

فقلت المرأة : هجوم !

افترقا .

كان ينتظره ، غير بعيد ، ثلاثة رجال يرتدون ثياباً رمادية ويحملون
 علبة اشبه بالعلاب التي يضع فيها الحدادون الجوالون ادوات عملهم ،
 وقد تركوا دراجاتهم الى جانب الرصيف وراء قصر كبير . فابتدروهم
 قائلاً : « ايه ... » وكأنه يحییهم بهذه الكلمة .

كان اولئك الثلاثة شباناً تبدو عليهم سيما الغبطة ، فسألوه
 بعيون ضاحكة :

— والآن ؟

— لقد أريتكم اياه أمس . انهم يخرجون عند الظهر ...

— بعد ثلاث دقائق .

— تمرون انتم على دراجاتكم ، وتنتظرون حتى يصعدوا الى السيارة .

— وعندما يصعدون نقبل نحن ...

— عندما نبدأ السيارة بالمسير .

— اليس عندما يصعدون ؟

— عندما تبدأ السيارة بالمسير .

— وانت ايها القائد ؟

— سابقى أنا خلفكم كما قلت لكم .

تبادل الشبان النظر ، ثم قالوا :

— ليس ذلك ضرورياً .

فقال بن رقم ٢ : هيا ، لقد حان الوقت .

امتطى الشبان الثلاثة دراجاتهم :

— هجوم !

— هجوم !

وابتعدوا .

مر بن رقم ٢ ، وهو ممسك دراجته بيده ، أمام واجهة القصر ، بين سيارة سوداء واقفة هناك وسلم يقف على رأسها للحراسة فتى المالني أشقر من فرق الهجوم ، وشمس الشتاء نلح على انبوب بندقيته الرشاشة . وقام الفتى فجأة بحركة سريعة ، فقد خرج من القصر أربعة رجال يرتدون معاطف عسكرية طويلة .

شاهد بن رقم ٢ وجوههم : ثلاثة وجوه المانية ووجه ايطالي ذي حاجبين رماديين ، وواصل سيره حتى الزاوية دون ان يلتفت الى الوراء . مر به الشبان الثلاثة على دراجاتهم ، متباطئين متهامين ، دون ان ينظروا اليه ، وكانت شعورهم البنية المتلامعة تحت شمس الشتاء ، تشبه شعور الحيوانات البنية اللون . فتلفت حينئذ خلفه ، متظاهراً بأنه يستعد لامتطاء دراجته ، فشهد الفتى الاشقر ما يزال محافظاً في

رأس السلم على حركته الفجائية ، ورأى باب السيارة مفتوحاً وقد أمسك به السائق . وكان الرجال الاربعة ذور المعاطف العسكرية الطويلة قد بلغوا أسفل السلم .

كان الرجال الثلاثة ذور الوجوه الالمانية يتصافحون . اما الرجل الاخر ذو الوجه الايطالي فكان يتقدمهم قليلاً ، وقد انحنى برأسه الى الامام ، ثم اتجه نحو السيارة ليستقلها .

وصل الشبان الثلاثة على دراجاتهم ، والامان ما يزالون يتصافحون . فعقد بن رقم ٢ ، واذا بالشبان يتابعون سيرهم ، فقال في نفسه : حسناً ، هذا أفضل !

ودخل السيارة اثنان من الالمان الثلاثة ، واغلق السائق الباب واستوى الى مكانه ، وليث الالماني الذي بقي امام السلم يجي زميله الراحلين ، بينما كان بن رقم ٢ يجبل انظاره بين ذلك الفتى الاشقر المنتصب على رأس السلم وهذا الضابط الالماني الذي يجي زميله في اسفلها .

وتحركت السيارة اخيراً . واذا بالشبان الثلاثة يبرون بها من جانب واحد . وشاهد بن رقم ٢ أيديهم ترتفع ، ثم سمع ثلاثة انفجارات متعاقبة .

قال لنفسه : لقد تم الامر بنجاح !

وامتطى دراجته بعد ان شرب مسدسه .

وكان الفتى الاشقر يطلق النار من أعلى السلم على الشبان الثلاثة المتطلقين على دراجاتهم ، بينما شرع الضابط الذي لبث يجي رفيقه حتى اللحظة الاخيرة يعبئ مسدسه .

وبدا الفتى يصيح بالالمانية وهو يطلق النار على الشبان الهاريين.
فقال ين رقم ٢ :

— ماذا تريد انت؟ ماذا تريد انت ايضاً؟

وشعر بنفسه يطلق النار مرتين ، فيسقط الفتى الاشقر منطوياً
على سلاحه ، ثم رأى الضابط يلتفت نحوه ويشرع في اطلاق النار
عليه .

خيل اليه ان هذا الضابط الالمانى يكبر ويكبر باستمرار ،
واخذ يطلق النار على هذا الجسم الذي يتعاضم ، وشاهد عبر الدخان
الذي كان يتصاعد من حطام السيارة انقاضاً سوداء في منتصف
الشارع .

انطلق مسرعاً الى وراء القصر ، ثم دخل في شوارع صغيرة
كان الناس يتراكمون فيها هاريين ، فانضم اليهم وهو ما يزال
بمتطياً دراجته . وكانت المتاجر تغلق ، والابواب ترتج ، والناس
المتراكمون يبيض الوجوه . فطفق يسأل عما حدث ، وكانت الناس
يجيبونه :

— الكلب الاسود ! الكلب الاسود !

فيسأل : الكلب الاسود؟

ويجيبون : الكلب الاسود... انه قادم الى هنا .

وكان ثمة جماعة من الناس محتشدة امام حانوت بائع الحليب ،
وقد هم البائع باغلاق حانوته ، لكن النساء كن يطالبن بقسطن من
الحليب فيصرخ هو :

— ولكن الكلب الاسود قادم الى هنا !

ويعلن "هن هذا الكلب الاسود .

سأل بن رقم ٢ : ولكن ماذا حدث ؟

ثم شهد المرأة التي يبعث عنها ، وهي المرأة التي كان قد التقاها امام بائع الصحف . وكانت واقفة بين حانوت بائع الحليب وحانوت مزين قريب منه ، خلف الناس المتراكمين ، فاجابته على سؤاله وهي تبسم :

— يبدو انهم قد نسفوا القيادة الالمانية .

وفتحت حقيبتها ، في غمرة الناس ، واخرجت منها منديلاً واخذت تمخط .

سأل بن رقم ٢ : هل هنالك قتلى كثيرون ؟

نظرت المرأة في حقيبتها فشاهدت المسدس قد اعيد اليها ، واجابت :

— يبدو ان هناك عشرين او ثلاثين قتيلاً .

واصطدم بها غلام كان يسرع الخطى وهو يصيح :

— لقد قتلوا جنرالاً .

فاغلقت المرأة حقيبتها وامسكت بذراع الغلام وسألته :

— ماذا صنعوا ؟

فاجاب : لقد قتلوا رئيس المحكمة . كرا ، كرا ... لقد قتلوه !

وكان الغلام شاحب الوجه الا انه بادي البهجة ، فتركته المرأة

يتابع طريقه ، ونظرت الى بن رقم ٢ الذي اشعل لفافة واجتاز الشارع

على دراجته . ولما بلغت الرصيف الآخر ، ادركها بن رقم ٢ وقال لها :

— هجوم ، يا لورينا .

فقال لورينا : هجوم !

ابتعد عنها وانطلق وحيداً في المدينة القفراء ...
وتراءت له الدور بابوابها المغلقة ، ونوافذها المغلقة ، وحوانيتها
المغلقة ، كأنها اشباح وهياكل دور في مفازة قفراء .
كانت شمس القفر تسطع على المدينة التي يلفها الشتاء .
وكان هذا الشتاء اجمل شتاء عرفته ايطاليا منذ سنة ١٩٠٨ . أما
ذلك القفر فلم يكن له شبيه في الدنيا بأسرها .
لم يكن شبيهاً بقفر افريقيا أو بقفر استراليا ، ولم يكن مؤلفاً
من رمل ولا من تراب . ولكنه كان مع ذلك قفراً رهيباً ،
كذلك القفر الذي يسود حتى غرفة مأهولة .
لقد شاهد ين رقم ٢ ذلك القفر ، واجتازه مفكراً في بورت التي
لم تكن حينذاك في ميلانو .
وسار حتى آخر ساحة ساميون ، حيث كان ملجأه ، ودخل
غرفته ، وهو ما يزال يسمع عواء الكلب الاسود يتردد في ذلك
القفري الخراب .

الام

للكاتب الصيني يو شيه

كان زوجها يتاجر بالجلود ، فيشتري جلود الحيوانات المتوحشة من الصيادين في المناطق النائية ويبيعها في المدن . ويشغل أحياناً في الزراعة ، فيساعد المزارعين في بعض المواسم بشتل الفراس . وكان الى هذا وذاك ، ماهراً في شق الاخاذيد المستقيمة في الحقول ، فكان المزارعون ، حين يحرقون حقول الارز ، يضعونه في مقدمة الحارثين ليترسموا خطاه . ومع هذا كله ، كانت الظروف تعاكسه ، وديونه تتعاظم سنة بعد اخرى . ولا ريب في ان بؤسه هو الذي دفعه الى التدخين وادمان الخمر ومعاطاة الميسر ، حتى اصبح شرس الاخلاق سريع الغضب ، وحتى افتقر بحيث بات الناس يترددون في اقراضه المبلغ الزهيد من المال . ثم ركبته المرض فامتقع لونه وذوت نضارته واصبح وجهه اصفر شيباً بظلم صغير من نحاس ، حتى ان عيذه قد تغير لونها وانطفأ بريقها . فكان الناس يقولون انه مصاب باليرقان ، وكان الاطفال يسمونه «البطن الاصفر» .

وذات يوم قال لها :

— لم يبق في وسعي ان اصنع شيئاً ، اذا استمرت الحالة على هذا الفرار ، فينبغي لنا ان نبيع للمقدر . واعتقد انه خير لنا ان تنقذينا بجسدك . فماذا اصنع من اجلك اذا بقيت هنا تعانيين معي
غصة الجوع ؟

كانت المرأة جالسة الى جانب المدفأة المصنوعة من الفخار ، وهي ترضع ابنها الذي أشرف على السنة الثالثة من عمره ، فقالت بصوت أصم متقطع :

— يجسدي ؟

فأجاب الزوج بصوت اوهنه المرض :

— اجل ، يجسدك . لقد أجرتك .

ففساءت ، وقد بدا كأنها توشك على الانغماء :

— ماذا تقول ؟

ومرت هنيهة ساد الصمت فيها ، ثم قال لاهثاً :

— منذ ثلاثة أيام كان لوب فانغ جالساً هنا ، وقد ظل ساعات طويلة يطالب بآله . ولما خرج غادرت المنزل وقد شعرت بأنني لم أبق أطيع الحياة . فلما وصلت الى بحيرة الفدانات التسعة ، جلست على جذع شجرة هناك . لم يكن أمامي الا أن انسلق تلك الشجرة والقي بنفسي في الماء . وقد كنت افكر بذلك حقاً ، لكن شجاعتي خانتني . وكانت ثمة بومة تتعب طول الوقت في اذني ، فشعرت بالبرد يتسلل الى قلبي ، وغادرت المكان . وفيما أنا في الطريق التقيت المرأة صون ، فسألني عما اصنع هناك في تلك الساعة المتأخرة ، فحدثتها بأمرى ، وسألتها ان تقرضني شيئاً من المال ، أو تعيوني حلية أرهنها ، كي لا أرى بعد الان عيني الذئب ، عيني فانغ الحضراوين ، تلعنان كل يوم في بيتي . لكن المرأة صون بدأت تضحك ، وقالت لي : « ولكن لماذا تصر على ابقاء امرأة في بيتك ، وأنت اصفر الوجه الى هذا الحد ؟ » فنكست رأسي دون ان اجيب ، واستطردت هي

تقول : « لاريب في انك لاتستطيع الانفصال عن ابنك ، اذ ليس لديك غيره ، ولكن المرأة ... » فقلت في نفسي : « لا أحسب انها ستنصحنى ببيع زوجتي . » وقابعت هي قولها : « ولكن المرأة ... ما شأنك بها ... حتي لو كانت امرأتك الخاصة ... انك فقير ، وانت لاتستطيع تغيير هذا الوضع ... فما فائدة ابقائها في بيتك ؟ » ثم صرحت بما يحول في خاطرها قائلة : « اعرف هسيوتساي بلغ الحسين من عمره ولما يوزق ولدآ . وهو يفكر بشراء امرأة ثانية ، لكن زوجته الاولى تمنعه من ذلك . الا أنها سمحت له باستئجار امرأة لثلاثة أعوام او خمسة . وقد طلب مني ان ابحث عن امرأة في حدود الثلاثين من عمرها ، ام ولدين أو ثلاثة ، خليقة بأن تعجبه ، وان تكون امرأة شريفة ، هادئة ، نخب العمل ، وتخضع لزوجته الاولى . ومنذ ايام حدثتني زوجة الهسيوتساي نفسها بهذا الامر ، وقالت انها اذا حصلت على امرأة تتوافر فيها تلك الصفات ، يدفعان مقابلها ثمانين دولارآ ، بل مائة . وأنا ما ازال ابحث عن امرأة تروقها ، ولم اوفق في العثور على بغيتي حتي الان . » ثم قالت انها ما كادت تراني حتي فكرت بك ، فانت المرأة التي تصلح لهذا الغرض . وسألني بعد ذلك عن رأيي ، فبكيت قليلاً ، ثم تركت نفسي تقتنع بصواب ما تقول .

وكان رأسه قد سقط على صدره ، واستحال صوته الى نمتة لم تلبث ان انقطعت فجأة .

لم تقل المرأة شيئاً . وكانت تبدو عليها الدهشة الفائقة . أما هو

فقد استطرد بعد قليل :

— امس ذهبت المرأة صوت الى منزل المسبوتساي ، وحدثني بأنه ابدى اهتماماً بك ، وان زوجته موافقة ايضاً . ان الاجرة مائة دولار . اما المدة فهي ثلاث سنوات اذا انجبت ولداً خلال هذه المدة ، والا فانها تصبح خمس سنوات . وقد عينت المرأة صوت اليوم الثامن عشر من الشهر موعداً لانتقالك الى هناك ، أي بعد خمسة ايام ، وسترسل اليوم عقد اليجار .

ارتعدت المرأة وقالت بجهد :

— لماذا لم تقل لي ذلك من قبل ؟

— طفت امس حولك ثلاث مرات كي اخبرك ، ولم استطع . اقول لك بصراحة : اذا لم تكوني لنا هذا المورد الاخير ، فانه لم يبق في وسعنا ان نصنع شيئاً آخر .

فقالت وشفاتها ترتجفان :

— هل اتخذت قرارك ؟

— اني انتظر العقد لتوقيعه .

— اوه ، بالاعار ! اصحيح انه لم يبق من وسيلة اخرى ، يا والد

ابني ككنز الربيع ؟

— عار ! أجل ، لقد فكرت أنا ايضاً بهذا . الا أننا فقراء ويجب

ان نعيش . ماذا نستطيع ان نصنع غير هذا ؟ أخشى ان لا تساعدني صحي هذا العام على العمل في حقول الارز .

— هل فكرت بكنز الربيع ؟ انه لم يبلغ بعد الثانية من عمره .

ماذا يحل به اذا فقد امه ؟

— استطيع ان اعطني به ، اذا كان ما يزال بحاجة الى عناية ...
وكان الاسى يتسلل الى نفسه شيئاً فشيئاً ، ثم ما لبث ان غادر
الغرفة بخطوات واسعة ، تهزه شهقات منقطعة ...

عاودت ذهن المرأة ذكرى منسية . كان ذلك منذ عام تقريباً ،
وقد وضعت طفلة وتمددت في فراشها كالهيئة . لكن الميت يموت
كله ، أما هي فكانت تشعر كأن جسمها محطم تحطيماً . وكانت
وليدتها تصرخ « آء ، آء » على كومة من القش ، فوق ارض الغرفة
الحشوية ، وهي تحرك يديها ورجليها باستمرار ، وخيط السرة يلف
جسدها . فبذلت جهداً كبيراً كي تنهض وتغسل الطفلة ، لكنها لم
تستطع ان ترفع عن الفراش سوى رأسها وحده . أما جسدها فبقي
اشبه بجثة لا حراك فيها . وحينئذ شاهدت هذا الوحش ، زوجها ،
يدخل الغرفة ، بوجهه الاحمر الملتهب ، وهو يحمل سطلًا من الماء
الغالي ، ويضعه بجانب الصغيرة . فقامت بجهد أخير لكي تصرخ به :
« انتظر !.. انتظر !.. » ولكن الوحش لم ينتظر لحظة ، ولم يقبل
نقاشاً ، ولم ينبس بأي جواب . وكما يقبض الجزار على حمل وديع
ليذبحه ، قبض هو بيديه الحشتين على هذه الحياة التي ولدت حديثاً ،
على الطفلة الصغيرة التي كانت تصرخ « آء ، آء » ، وتركها تسقط
في الماء . انها لم تسمع صوت اندفاق الماء الغالي وصفيره ، ولم
يصدر اي صوت عن الطفلة . وهي تتساءل الآن بدهشة : لماذا لم
تصرخ الطفلة ؟ أكانت سعيدة بان تعاني في صمت هذه الميتة الظالمة ؟
ولكنها لم تلبث ان ادركت لماذا لم تسمع صوتاً ! لقد فقدت وعيها .

لقد اغمي عليها كما لو ان احداً قد انتزع قلبها من صدرها .
كلما كانت تستعيد هذه الذكرى ، كان يخيل اليها ان دمعها
قد نفذ ، لكثرة ما تبكي وتتعب . اما الآن فقد تنهدت ببطء
وقامت :

— أواه ما اقسى القدر !

فتترك كنز الربيع ثديها ، ورفع عينيه نحوها قائلاً :

— اماء ! اماء !

جلست ليلة رجيلها في اكثر زوايا البيت عتمة . وكانت ثمة
مصباح زيتي يلمع امام المدخنة كزجاجة مضيئة ، وهي تضم كنز
الربيع بين ذراعيها وتسحب خدها على شعره . اما افكارها فكانت
تطوف بعيداً ، في آفاق لا تعرفها ولا تستطيع ان تسميها ، ثم تعود
ببطء الى اللحظة الحاضرة ، الى ابنها ، فتناوذه :

— كنز الربيع ! يا عزيزي !

فيجيب وهو يمسك بثديها :

— اماء !

— ان امك ستذهب غداً ...

فلا يفهم الولد ما تعني ، ويلتزم الصمت ، لكنه يدفن رأسه في
صدرها بحركة غريزية ، فتستطرد وهي تمسح دموعها :

— ان ماما لن تعود . انها لن تستطيع العودة خلال ثلاث

سنوات . فيقول وهو يتبعد عن ثديها :

— الى اين ستذهب الماما ؟ الى المعبد ؟

— كلا، انها ستذهب الى مسيرة عشرة اميال من هنا، ستذهب
عند امرة تدعى لي .

— سأذهب انا ايضاً !

— عزيزي لا يستطيع الذهاب وحده .

فيتحمل الطفل ويعود الى ينبوع الابن الصغير ، وتتابع هي كلامها :

— ستبقى في المنزل مع بابا . بابا سيسهر على عزيزي . سينام مع

عزيزي ويقوده ليلعب خارج البيت . ستصنع ما يقوله لك بابا . هذا
كل شيء . وبعد ثلاث سنوات ...

فيقاطعها الطفل قائلاً والدموع تسيل في صوته :

— بابا سيضربني !

— بابا لن يضربك ...

قالت ذلك وهي تداعب خده الايمن الذي ما يزال يحمل اثر

ضربة وجهها اليه ابوه ، بقبضة معوله ، بعد ان قتل اخته بثلاثة أيام .

وكان يبدو أنها ما تزال تود أن تتحدث الى ابنها وان تطيل

اليه الحديث ، لما دخل زوجها بخطى محتومة اشبه بخطوات الذئب .

اقبل الزوج نحوها ، وقال وهو يبحث في جيبه :

— لقد تسلمت سبعين دولاراً ، وسأنسلم الثلاثين الباقية بعد وصولك

الى هنالك بعشرة ايام .

وساد الصمت قليلاً ، ثم قال :

— لقد وافقوا على ارسال محمل لنقلك ..

وساد الصمت مرة اخرى ، ثم استطرد :

— وسيأتي المحالون في الصباح !

وغادر البيت من جديد .
ولم يذوقا في ذلك المساء طعام العشاء .

في صباح اليوم التالي كانت سماء الربيع تمطر مطراً رذاذاً لما وصل الحمل لنقل المرأة . لم تكن هي قد رقدت تلك الليلة لحظة واحدة . فقد عكفت اولاً على ترفيع ثياب كنز الربيع الحلقة . ولقد كان الصيف على الابواب ، لكنها أصلحت له حتى المعطف الممزق الذي يرتديه في الشتاء . ولما فرغت من عملها ، جمعت الثياب كلها ووضعتها على مقربة من الفراش الذي يرقد عليه الاب . ثم جلست الى جانبه تحاول ان تتحدث اليه ، سوى ان تلك الليلة الطويلة قد جرّت نفسها ببطء ثقیل ، ولم تستطع هي ان تقول خلالها كلمة واحدة . وقد استجمعت شجاعتها مرة أو مرتين كي تناديه ، الا انها لم تستطع ان تقول شيئاً ذكياً ، ولم ترفع صوتها بالقدر الذي يمكن ان يوقظه . ثم استلقت الى جانبه في صمت .

ولما أوشك ذهنها أن يضيع في غيابة الوعي الباطن ، استيقظ كنز الربيع ، فاستيقظت معه والبسته ثيابه ، وقالت له :
- يجب ان يكون عزيزي عاقلاً في أثناء غيابي ، وان لا يبكي ، كي لا يضربه ابوه . وستشتري ماما كثيراً من الحلوى لعزيزي .
يجب ان لا يبكي عزيزي .

فلم تبد على الطفل سيماء الحزن ، بل فتح فاه وبدأ يغني . فقالت وهي تقبله في زاوية فمه :

— لا تغن اثلاً توقظ أباك .

وكان حملة الحمل قد جلسوا على مقعد قريب من الباب ،
وراحوا يدخلون في غلايين طويلة ، ويتنادرون .

وبعد قليل قدمت المرأة صون من القرية المجاورة . وكانت
صون عجوزاً تسعى في شؤون الزواج والتوسط بين المحبين ، وهي
غنية بتجارها في هذا المضمار . فلما دخلت البيت نفضت عن معطفها
قطرات المطر وهي تقول :

— السماء تطر ! السماء تطر ! هذا بشير الحصب لبيتك !
وجالت في انحاء الغرفة بطريقتها كأمراة عملية ! وألقت الى الاب
ببضع كلمات مفادها انها تنتظر نصيبها من الصفقة ، اذ بفضلها هي
كانت قد الايجار سخياً الى هذا الحد . وختمت حديثها قائلة :

— واقول لك بصراحة ، يا ابا كثر الربيع ، ان الشيخ لو بذل
خمسين دولاراً اخرى لاستطاع الحصول على حظية .

ثم ألحت على المرأة بالاستعجال ، لانها كانت ما تزال جالسة
دون حراك وابنها على ذراعها . وصاحت بها بصوتها النافذ :

— انت الحماين يريدون العودة الى بيوتهم لتناول طعام الغداء
فيها ، فيجب ان تسرع بالذهاب .

فنظرت اليها المرأة في صمت وكان نظرتها تقول : « ولكني لا
اريد الذهاب ! دعيني اموت هنا جوعاً ! »

وفهمت وسيطة عقود الزواج ما يطوف على شفتي المرأة ،
فدلقت نحوها قائلة ، وعلى ثغرها ابتسامة مشجعة :

— حقاً انك مخلوق بسيط . ماذا يستطيع « البطن الاصفر » ان

يعطيك بعد الآن ؟ اما هناك فانك ستجدن نفسك في اسرة غارقة في النعيم ، تملك مائتي فدان ، وكثيراً من المال ، ومنزلاً كبيراً ، وماشية ومستخدمين . والمرأة ، لعمرى ، غاية في الطيبة والتهذيب ، ولن تلتقيك مرة دون ان تغدق عليك منحها من المؤن والوان الغذاء . واما الشيخ - على انه ليس عجوزاً الى هذا الحد - فانه ابيض الوجه وليس ملتحمياً ، وقد اكسبته الراحة التفافاً انيقاً في الكتفين . لكني لا اعتقد ان ثمة حاجة لان اقول لك هذا كله . فيكفي ان تنزلي من محملك ، حتى تتأكدي من انني لا اختلق في مهنتي الاكاذيب .

فمسحت المرأة دمعها ، وقالت بوداعة :
 - كنز الربيع !.. كيف استطيع ان اتوكة ؟
 فأجابتها العجوز وهي تربت على ظهرها :
 - لا يؤلمك امره ، فقد بلغ الثالثة . وقد قال القدماء :
 « في الثالثة او الرابعة يغادر الطفل امه . » فهو يوشك اذن على ان يهجرك . وانت اذا بذلت جهدك لوضع ولد او ولدين في اثناء وجودك هناك ، فان كل شيء يجري على احسن ما يرام .
 وكان الحالون قد بدأوا يستعشون المرأة قائلين : « انها ليست عروساً ، فلما بالها تبكي هكذا ! »
 فأخذت العجوز ولدها منها قائلة :
 - سأخذه معي .

فطفق الولد يصرخ ويتخبط بين ذراعي المرأة العجوز ، حتى خرجت به من الباب الخلفي . ولما اخذت الام مكانها في المحمل ،

هتفت :

— أعيدوه الى البيت فان السماء تمطر !
اما الزوج فكان جالساً على العتبة ، وقد اعتمد رأسه باحدى يديه ، ولبت كذلك دون ان ينبس بكلمة او يبدي حركة .

كانت المسافة بين الفريتين عشرة أميال ، ولكن الحمالين لم يتوقفوا في الطريق سوى مرة واحدة . وفي المرة الثانية التي توقفوا فيها كانوا قد وصلوا بها الى المنزل . وكان مطر الربيع المتساقط باستمرار ، قد بلل ثيابها من خلال الستائر ، فغادرت المحمل بخطى متثاقلة . واستقبلتها على الباب سيدة في حدود الرابعة والخمسين او الخامسة والخمسين من عمرها ، ذات وجه ممتلئ وعينين ماكرتين . فقالت في نفسها : « هذه هي المرأة » ، ونظرت اليها في صمت تفعمه الحيرة . وقادتها المرأة برفق نحو درج المدخل حيث كان في انتظارها رجل ممتلئ الجسم ذو وجه مستدير . فتطلع الرجل اليها باهتمام ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وقال :

— لقد وصلت باكراً ، هل تبلت ثيابك ؟

فلم تمر المرأة المسنة كلامه انتباهاً ، وسألها هي :

— هل معك شيء في المحمل ؟

فأجابت : كلا ، ليس معي شيء .

وتأملت امام البيت بضع نساء تقاطرن من المنازل المجاورة ،

ورحين ينظرن اليها بفضول ، بينما كانت تدخل المنزل .

سألت نفسها ، بعد ان استقرت في مقعدها بالمنزل ، لماذا لا تستطيع

ان تكف من التفكير في بيتها القديم وان تنسى كثر الربيع ! لقد كان واضحاً انه ينبغي لها ان تبتهج لان السنوات الثلاث التي ستقضيها في هذا المنزل قد ابتدأت . فالمنزل الجديد والزوج الذي أجرت له ، كانا يفضلان بيتها وزوجها القديين . ولا ريب في ان الميسوتساي رجل طيب ووديع ، بل ان المرأة نفسها كان يبدو انها لطيفة رغم موجة الكلام المتدفقة من شفيتها دون انقطاع . لقد روت لها هذه المرأة بسرعة تاريخ حياتها الزوجية ، منذ ايام الزواج السعيدة الى الايام الحاضرة ، اي خلال مرحلة دامت ثلاثين عاماً . وبما قاله انها كانت قد وضعت منذ خمسة عشر عاماً او ستة عشر مولوداً ذكراً ، جميلاً وذكياً كما زعمت ، ولكنه توفي بالجدري وهو في الشهر العاشر من عمره . ولما لم ترزق بعده ولداً ، اثرت ان يتخذ زوجها امرأة ثانية ، لكنه رفض ذلك لانه يحبها !

كانت المرأة الشابة ، في اثناء اصغائها الى حديث العجوز ، تشعر تارة بتجدد قواها وبالنشاط يدب في جسدها ، وتحس تارة اخرى الانحطاط والحزن الثقيل . ثم بدأت المرأة المسنة تتحدث عن آمالها بالمستقبل ، فتلمت هي ، واحمر خداهما لما سمعتها تقول :

— لقد اتيج لك ان تضعي عدة اطفال ، فأنت على علم بكل ما ينبغي معرفته في هذا الشأن . وانا واثقة من انك اكثر معرفة مني واوفر تجربة !

ثم تركتها وغادرت الغرفة .

وفي المساء حدثها الميسوتساي ، بدوره ، حديثاً طويلاً عن احواله العائلية ، مفتخراً ، ومحاولاً كسب اعجابها . كانت جالسة على مقربة

من سرير انيق لم تشهد مثله في بيتها ، ولا هجس في ذهنها يوماً
 انها منشهد مثله في حياتها . وفيما هي تطيل النظر الى هذا السرير ،
 دخل هو وجلس امامها ثم سألها :
 - ما اسمك ؟

فلم تجب ، ولم تبسم ، ولكنها لما نهضت اتجهت نحو السرير ،
 فتبعها وقال لها ضاحكاً :
 - أتكونين حية الى هذا الحد ؟ آه ، انك تفكرين بزواجك ،
 أليس كذلك ؟ ان زوجك الآن هو انا ...
 وكان صوته وديعاً ... وقد مد يده فلمس ذراعها وهو يتابع
 حديثه :

- لا ينبغي لك هذا . اعتقد بأنك تفكرين بابنك ايضاً .
 ولكن ...

ولم يكمل ما كان يريد ان يقول ، بل دنا منها ضاحكاً
 وشرع ينضو عنها ثوبها .

اما هي فكانت تصغي الى صوت زوجته التي كانت توبخ شخصاً
 في ساحة الدار . ولم تستطع ان تعرف من هو هذا الذي توبخه .
 فلعله الطباخة ، او لعلها توبخها هي ، بل لا بد من ان تكون
 هي السبب الدافع الى هذا الشجار !

الا ان الهسيوتساي قطع عليها تفكيرها ، اذ ناداها من السرير :
 - تعالي الى هنا . انها تزجر دائماً . انها تحب البستاني كثيراً ،
 وهي توبخ دنان ، الطباخة دائماً لان البستاني يحبها !

مرت الأيام واحداً بعد آخر ، وبدأت ذكرى بينها القديم
تبتعد مع الزمن ، وأصبحت تألف شيئاً فشيئاً جوها الجديد . كان
يخيل اليها في بعض الأحيان انها تسمع كنز الربيع يبكي ، وقد
حلمت به غير مرة ، ولكن الغموض كان يشيع في أحلامها أكثر
فاكثر ، بينما تتضع واجباتها المنزلية الراحنة يوماً بعد يوم ، وتغدو
أشد إلحاحاً من قبل . ولقد تبين لها ان السيدة المسنة كانت
كثيرة الشكوك ، فهي تتظاهر بالكرم والسباحة . بيد ان غيرها
كانت تجعل منها جاسوسة تراقب كل حركة تبدر من زوجها نحو
المرأة الجديدة . فاذا ابتدر المسيوتساي هذه بالكلام عند عودته
الى المنزل ، قبل ان يتجه به اليها ، أسرع الى ظنها انه يحمل اليها
هدية ، وعملت تلك الليلة على احضاره الى غرفتها ، ثم تصاعد من
هذه الغرفة عتاب أقل ما يسمع منه قولها له : « ان هذه الماكرة
قد سحرتك ، كأنك لا تعرف كم تزن عظامك المسنة ! » وكان
اذا اتفق للمرأة الشابة ان كانت وحيدة في حجرتها ، عند عودة
المسيوتساي الى المنزل ، بادرت الى مغادرتها حالاً ، لئلا يوافيها
الى هناك فينفر بها ، اذ كان من العسير عليه ان يستطيع
البقاء بعيداً عنها ، حتى في حضور السيدة نفسها ، رغم انها كانت
تحرص على الظهور بمظهرها الطبيعي الذي لا تجمله اية زينة
مصطنعة ، ولا تألو جهداً في انكار نفسها والتواري عن الأنظار
ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ، وان كانت المرأة المسنة لا تفتأ
تنهها بالغرور والكبرياء ، حتى امام الجيران والغرباء .

وقد وقعت شؤون البيت ، مع الزمن ، على عاتقها وحدها ،

كما لو كانت خادماً ، فكانت تتحمل هذا العبء بصبرها وحكمتها ، وتغسل ثياب السيدة المسنة نفسها . وقد قالت لها هذه يوماً :

— ليس ثمة حاجة لأن تغسلي ثيابي ، حتى ولا ثيابك أنت ، فني وسعك أن تعهدي بغسلها الى فان ...

الا انها بعد ان قالت لها هذا ، لم تلبث ان استطردت :
— اذهبي الى الاسطبل يا فتاتي ، والقي عليه نظرة ، فاني لا استطيع أن أفهم لماذا يقوم هذان الخنيران بكل هذه الضجة .
لا ريب في انهما جائعان ، لأن فان لا تعنى بهما البتة .

وبعد شهور ثمانية من حياتها الجديدة ، تبدلت شهوتها للطعام . فلم تبق بها رغبة في تناول الأرز ، واكتفت بأكل العجة والبطاطا . ثم عافت نفسها هذين اللونين ايضاً ، وتناقت الى الحوخ والدراقن ، ولكن كيف يمكن الحصول على الاثمار في فصل الشتاء وهي لن تنضج الا بعد ستة أشهر !

ابتهج المسبوتساي بالبشرى التي حملتها اليه هذه الامارات ، وطلق يشترى لها كل ما يستطيع الحصول عليه . وكان كثيراً ما يجول في شرفة منزله متمسكاً كلمات لا يسمعها أحد غيره . وقد رآها ذات يوم وهي تساعد فان في طحن القمح لصنع الحلويات التي يسمونها « حلوى نيوبورك » فناداها وقال لها :

— يجب ان تستريحي . فان في وسع الخادمة أن تطحن الباقي ، انهم سيأكلون جميعاً من الحلوى ، فلماذا تتكبدن مشقة صنعها بفردك ؟

وفي بعض العشيات ، لما كان الآخرون يفرقون في ثوبتهم ، كان يحمل مصباحاً ويجلس على انفراد ليقراً في « كتاب الافاشيد » . وكانت الخادمة تسأله :

— لماذا تقرأ يا سيدي هذه الاشياء ، وقد تخطيت عهد الدراسة ، ولم يبق من واجباتك ان تقدم فحوصاً ؟
فيداعب خديه الاجردين وبقراً بغبطة :

« شموع مزهرة ليلية العرس ، وثبت ذهبي بأسماء الخطباء » .
ثم يقول : أتفهين ما تعني هاتان الجملتان ؟ انهما أسعد
الاحداث في حياة الانسان . وقد أصبحا الآن ، كلاهما ، من شؤون
الماضي البعيد بالنسبة اليّ . لكنني أشعر مع ذلك بفرح اكبر
منها معاً .

فيضحك جميع الحاضرين الا زوجته .
وكانت هذه الامور تنقص السيدة المسنة . لقد كانت في البدء
مبتهجة بحبل المرأة الشابة ، لكنها لما شاهدت كيف يسعى
المسيوتساي لتأمين كل ما تطلبه ، شعرت بالغيط لان بطنها هي
ليس قادراً على تأدية واجبه .

ومرضت المرأة الشابة مرةً ، في الشهر الثالث من السنة الثانية ،
مرضاً خفيفاً . فحرص المسيوتساي على ان تلازم فراشها انتجاعاً
للراحة . ولم يكتف بهذا ، بل دأب على سؤالها في كل مناسبة عما
تريده أو تحتاج اليه . فساور المرأة المسنة غضب عنيف ، واتهمت
المرأة الشابة بانها تتظاهر بالمرض ، وراحت تتحدث عنها بهزوء :
« ان هذه المرأة فدت نفسها ، منذ قدومها ، باكثر مما تستحق .

وهي لا تقنأ تتفنج وتتدلل كأنها حظية من الدرجة الاولى !
 وكانت واثقة من ان هذه المرأة لم تكن مدللة في بيتها على هذا
 الفرار ، وأنها كانت تضطر للبحث عن طعامها ، وأولادها في بطنها ،
 ككلاب الشارع . أما الآن ، فهي تدعي الرقة لان هذا الكهل
 الحبيث ، كما كانت تسي زوجها ، يدلها اكثر مما ينبغي لها .
 وقالت يوماً للخادمة فان :

— ولد ! لقد وضعنا كلنا أولاداً . لقد حملت ابني عشرة أشهر ،
 ولا اعتقد بأن انساناً قد يتألم بمقدار ما تألمت . ومهما يكن ، فان
 ابنها لا يزال في سجل العالم الآخر . ومن الذي يستطيع ان
 يضمن كون المخلوق الذي ستضعه ليس ضفدعة سامة شعاء .
 لتتدلل أمامي عندما يخرج ذلك الحيوان الصغير الى النور . اما
 الآن ، فانها لتسرع في التكبر والتزيد وهو ما يزال قطعة من لحم .
 لم تتناول المرأة الشابة طعامها ذلك المساء على المائدة ، بل
 ظلت في سريرها تسمع امثال هذه الاحاديث الجارحة وتنتحب في
 صمت . وكان الميسوتساي خالماً بعض ثيابه وجالساً على حافة
 السرير لما سمع شائماً زوجته ، فنضع جسده بعرق بارد ، وبددت
 منه حركات توحى بأنه سينهض ، فيرتدي ثيابه ، وينقض على
 العجوز ، فينتزع شعرها ، ويضربها ضرباً مبرحاً . ولكن قواه خائفة
 فطفقت اصابعه ترتجف ، وارتجى ذراعه ، وتمت متهدداً :

— وأأسفاه ! لقد عاملتها خير معاملة خلال الثلاثين السنة التي
 انقضت من حياتنا ، فلم اضربها قط ، لم المسها باصبعي . وها هي
 الآن تصبح فظة ، شرسة الخلق ، شبه بأرملة !

ثم انحنى على المرأة الشابة وهمس في اذنها :

- لا تبكي ! لا تبكي ! دعها تنبع . انسا هي دجاجة عقيم لا تستطيع ان ترى دجاجة غيرها تحضن بيضها . اذا اعطيتني صبيّاً حقاً ، فسأعطيك حليتين ثمبتين . عندي خاتم من الزمرد الاخضر ، وآخر من الزمرد الابيض ...

وقاطعه صوت زوجته التي كانت ما تزال ترسل شنائها ، فألقى ثيابه الى الارض وغطى رأسه باللحاف وهو يتنم :
- عندي زمرد أبيض ...

وكان بطن المرأة يتسع يوماً بعد آخر ، حتى اصبح بحجم مد القمح ، وحتى اضطرت العجوز ان تحضر القابلة . ثم انتظرت ساعة اجتمع فيها بغرفتها رهط من النساء ، فأخرجت من صناديقها لحافاً زاهياً وثياباً بيضاء لاطفل .

كانت حرارة الصيف الثقيلة قد انجابت ، والاسرة تقضي القمر السادس في انتظار الحريف ، والنسبات الندية قد بدأت تداعب القرية . وفي ذات يوم ، بلغت الآمال أوجها ، فساد القلق جو المنزل ، واصبح المسبوتساي في حالة شديدة من التوتر . كان يزرع ساحة الدار جيئة وذهاباً ، وهو ممسك بتقويم فلكي ، كأنه يستظهر بعض ما فيه ، متمماً بين حين وآخر : « ان تأثير النمر يتغلب » ، شاخصاً بعينه احياناً الى نافذة الغرفة المغلقة حيث يعلو صوت القابلة ، متطلعاً في احيان اخرى الى الشمس المغطاة بالغيوم . وكلما مرت به الخادمة فان يسألها متلفاً عما حدث ، فتخفض رأسها ثم هنيهة تهجيب :

— لن يطول الامر ! لن يطول الامر !

فيعود الى تقويمه ، والى ذرع الغرفة بخطواته السريعة القلقة .
واستمرت الحال هكذا ، حتى صعدت من الارض ضبابة الغسق ،
وأضاءت المصابيح هنا وهناك أشبه بزهور الربيع . حينئذ ولد
الطفل ، وكان غلاماً ذكراً ، وقد ارتفع صوته من الغرفة المقفلة .
جلس الميسوتساي في احدى الزوايا وهو يوشك على البكاء لشدة
فرحه . ولم يكن قد تناول الطعام احد في المنزل . فلما فرغوا
من عملهم ، احتشدوا حول المائدة لتناول الحساء . قالت المرأة
العجوز للخدم :

— لا تذيعوا الخبر قبل بضعة ايام ، كي نجنب الطفل ما ينتج عن
أقوال الناس من شرور ، واذا سئتم فقولوا ان المولود انثى .

بعد شهر واحد ، بدا وجه الطفل الابيض الرقيق لشمس
الحريف . فتقاطرت النساء من البيوت المجاورة لرؤيته ، وطففن
يمتدحنه : هذه تطري انفه ، وتلك تطري فمه ، واخرى تشيد بجبال
اذنيه . وقد لاحظن ان صحة الام خير من قبل ، وانها قد
ازدادت حسناً . ولكن السيدة المسنة ما لبثت ان اقبلت تصدر
الاوامر ، معنية بكل شيء كجدة حقيقية ، قائلة لجاراتها :

— كفى ... كفى الآن ، لقد كدتن ثرون بكاء الطفل .

وكان الاب العالم لا يفتأ يفكر في الاسم الذي ينبغي له ان
يطلقه على الوليد ، دون ان يقع على الاسم الذي يعبر عما في
نفسه من شعور . وقد اقترحت السيدة المسنة ان يكون اسم

الطفل « حياة طويلة ، او « غنى ، او « شرف ، او « سعادة » او « رخاء » او « فرح » ، وقالت انها تفضل « حياة طويلة » او ما يشابه من الاسماء مثل « كهولة ناضجة » مثلاً ! فلم يوافق المسيو تساي على اطلاق اي من هذه الاسماء على ابنه ، لكنه قلب صفحات « كتاب التحولات » و « كتاب التاريخ » خلال النصف الاول من الشهر ، ثم خلال الشهر بطوله ، دون ان يقع فيها على اسم يرضيه . فقد كان يبحث عن اسم يكون فالاً للطفل ، ويعبر من ناحية اخرى عن انه رزق هذا الطفل وقد تقدم به العمر بعض الشيء . ولم يكن ذلك بالامر اليسير .

وذات يوم ، بعد ثلاثة شهور ، بينما كان الاب جالساً في زاوية وطفله على ركبتيه ، و كتابه في يده يقلبه بنهل باحثاً عن اسم جميل ، والام جالسة في زاوية اخرى ، وفكرها ضائع في آفاق بعيدة ، قالت الام فجأة :

— اعتقد ان من المستحسن تسميته « كنز الحريف » !

فانجحت اليها انظار من بالغرفة وقد تولتهم الدهشة ، واستطردت هي تقول :

— لقد ولد في الحريف ، أليس كذلك ؟ انه منحة ثمينة من منح الحريف . فليدع اذن « كنز الحريف » .

فهتف المسيو تساي وقد اعجبته الفكرة أيما اعجاب :

— هذا اسم رائع حقاً . بالجهد الضائع الذي بذلناه . أجل ، انا في خريف حياتي ، فقد اجتزت سن الحسين . وقد ولد الطفل ايضاً في الحريف ، فصل النضج في الطبيعة . ان « كنز الحريف »

لأسم كامل . وهو ، فضلاً عن هذا ، اسم يمكن ان نجده في « كتاب التاريخ » ، فالكتاب يقول انه سيحدث ايضاً حصاد في الحريف ، ولقد جاء حصادي انا بالحقيقة في هذا الفصل .

ثم اثنى على الام ثناء بالغاً ، قائلاً ان الدراسة وحدها لا قيمة لها ، وان الذكاء هبة الهبة ، حتى ضاقت المرأة الشابة بالثناء الشديد ، فقالت بتواضع ، وقد نكست رأسها واوشكت على البكاء :
- خطر لي هذا الاسم لاني كنت افكر بكنز الربيع !

كان كنز الحريف يصبح يوماً فيوماً اكثر جمالاً وأشد تعلقاً بأمه . وكانت له عيان واسعتان ينظر بهما الى الغرباء نظرة مدققة فاحصة . اما امه فكانت يعرفها حالاً وان كانت بعيدة عنه . وكان حريصاً على عناق امه طول يومه ، قليل المبالاة بأبيه والاحتفال له ، رغم الحب الشديد الذي كان المسبوتساي يبعثه اياه . اما المرأة المسنة فلم تكن لتحمل للطفل سوى عاطفة مصطنعة ، لكنها طفقت تتظاهر بانها تحبه كما لو كان ابنها هي ، وان كان الطفل لا ينظر اليها الا نظره الى امرأة غريبة .

وكلما كان تعلق الطفل بأمه يزداد ، كانت يوم ابتعادها عنه يقترب . فقد أقبل الربيع في اعقاب الشتاء ، وبدأت خطوات الصيف تدنو ، واوشكت مدة ايجار المرأة على الانتهاء ...

وتحدث المسبوتساي الى زرجته بهذا الشأن ، بدافع من حبه لولده ، قائلاً انه يريد ان يدفع مائة دولار اخرى وبشئري للمرأة الى الابد . فقالت الزوجة :

— اذا كنت تريد ان تشتريها فاعطني سماً قبل ذلك .
فساور الرجل غضب شديد ، ولبت بروة لا ينكلم ، ثم قال
وهو يحاول عبثاً ان ينسم :

— الا تعتقدين ان الولد اذا حرم امه ...
فقاطعته قائلة : اذن ، فانت لا تعتقد بانني اهل لان اكون له أمأ ؟
اما الام فكانت تتنازع فكرها عاطفتان متضاربتان . لقد
ألفت منذ وقت طويل ذلك الصدى الذي كان يرن في اذنيها
بامتداد : « ثلاث سنوات ! ثلاث سنوات ! » كانت تقول لنفسها
ان هذه السنوات الثلاث لا بد من ان تنتهي ، وهذا الامل
قبلت حياة العبودية التي عاشتها في منزل الهسيونسي .
ان ذكرى كنز الربيع قد ظلت حية في قلبها مسيطرة عليها ،
يقدر ما كان حياً لكنز الحريف حياً ومسيطرأ . واذا كانت
فكرة الانفصال عن هذا الطفل الاخير مرة على نفسها وشاقة على
قلبها ، فقد كانت فكرة التخلي عن الاول الى الابد امرأ وأشق !
وكانت ترغب في الوقت نفسه بأخلاص ان تقضي بقية حياتها
في اسرتها الجديدة ، لانها تدرك ان ابا كنز الربيع لن يعمر
طويلاً ، وان مرضه وفقره لا بد من ان يجعلاه اخيراً على المهاجرة
الى احدى المقاطعات المجهولة النائية ، فخير ما تنشده واقصى ما
توجهه ان تبقى في هذا البيت الجديد ، وان تسأل صاحبه تبني
كنز الربيع ليكون على مقربة منها .

كان يحلو لها ان تحلم على الشرفة تحت شمس الايام الاولى من
فصل الصيف ، وكثيراً ما كان يجبل اليها وهي تضم كنز الحريف

الى صدرها ، ان كنز الربيع واقف الى جانبها ، فتمد ذراعها اليه
لتضمه الى جانب اخيه فتناغيها معاً وتلاعبها ، لكنها لا
تلبث ان نحس ان الآخر بعيد عنها .

وكانت المرأة المسنة ذات الوجه الوديع والعينين القاسيتين
تراقبها من خصاص الباب بأهتمام ، فاذا ثبت الام الى نفسها والى
حقيقتها قالت لنفسها : « خير لي ان اذهب باسرع ما استطيع ، فانها
توافني كجاسوس ! » الا ان الطفل لا يكاد يبكي في ذراعيها حتى
تشر من جديد بأنه هو الذي يهمها بالدرجة الاولى ، فيجب ان
تبقى من اجله وان تتحمل في سبيله كل شيء .

واعتزم الاب اخيراً ان يعدل من فكرته الاولى ، فيرسل في
طلب المرأة صون ويكلفها الذهاب الى بيت الزوج الاول لأم كنز
الحريف ، كي تسأله أوافق على تمديد ايجار زوجته الى ثلاث
سنوات اخريات . وقال يوماً لزوجته :

— عندما يبلغ كنز الحريف السنة الخامسة من عمره ، يصبح في
وصعه الانفصال عن امه .

وكانت المرأة المسنة تسبح في مسبحة بوذية فقالت :
— ان لهذه المرأة ولداً ينتظرها في المنزل ، فينبغي لك ان
تسمح لها بالعودة الى زوجها الشرعي .

وتابعت صلاتها قائلة : « مامو اميتاب ... مامو اميتاب ... »

فخفض الرجل رأسه وقال بصوت متردد :

— ولكن فكري بكنز الحريف اذا حرم امه ...

فأجابت المرأة المسنة وهي تضع مسبحتها بجانبها :

— استطيع ان اريه انا . ان في وسعي العناية به . أم لعلك
تخشى ان اقتله ؟

فنهض وغادر الغرفة بينما كانت تصرخ به :

— لقد اردنا هذا الولد كي يساعدني انا ، فكنز الحريف هو
لي . ان اسرتك هي التي كانت مهددة بالانقراض وليست اسرتي .
ولكن تقدمك في السن يقودك الى الحرف . ولعمري ، ماذا بقي
لك من الحياة ؟ أتحسب انك ستبقى ملتصقاً بهذه المرأة الى
الابد ؟ انني لا اريد ان يوضع نعشي الى جانب نعش هذه المرأة
المجهولة الاصل .

وفي الصيف اصيب الطفل بالحمى ، ونبتت له دملة في رأسه .
فبذلت المرأة المسنة جهداً كبيراً في التضرع الى الآلهة ، وفي
الحصول على ادوية بوذية كانت تفرك بها الدملة او تحشو بها معدة
الطفل . اما الام فلم تجد في هذا المرض خطراً كبيراً على ابنها ،
وكانت تلقي بالادوية البوذية خفية ، كلما واثتها فرصة لتصنع ذلك .
فكانت السيدة العجوز تقول لزوجها :

— أرايت ؟ انها لا تقلق على ابنها ولا تعنى بمعالجته ، وليس من
احد يستطيع ان يقنعا بأنه قد بدأ يضعف . ان الحب الكامن
في القلب هو حب عميق ، اما الحب الذي يطفو على السطح فهو
حب كاذب !

فيلتزم المهيوتساي الصمت ، ونبكي المرأة الشابة في الحفاء .

لما بلغ الطفل السنة الاولى من عمره ، أقام ابوه مأدبة لمناسبة

هذا العبد التذكاري ، دعا اليها اربعين شخصاً . وقد حمل المدعوون معهم هدايا من الجوخ ، او حلويات ، وحمل غيرهم اسوداً صفاراً من الفضة لتعلق في رقبة الطفل ، وجلب آخرون صوراً مذهبة للآله « حياة طويلة » . واقبلوا يهنئون الاب ويتسنون للطفل العظمة والجلود ، ووجه الهسيوتساي يطفح بهجة كأن خديه يعكسان غروب الشمس !

وفي مساء ذلك اليوم نفسه ، بعد ان التف المدعوون حول المائدة وشرعوا يتناولون الطعام ، دخل ساحة المنزل ضيف جديد كان يسير ببطء في ضباب الليل الهابط . واتجهت انظار المدعوين نحوه ليتبينوه ، فشاهدوا رجلاً زرباً قبيحاً ، طويل الشعر ، تعافه النفس ، يحمل تحت ثيابه الحلقة رزمة ملفوفة بالورق . فهرع الهسيوتساي نحوه دهشاً من رؤية مثل هذا الرجل في منزله ، وسأله عما يريد ومن اين هو آتٍ . فأجاب الرجل انه يحمل هدية للطفل . ولم يساعد هذا الجواب المذهب الهسيوتساي على معرفة محدثه ، لكن بارقاً لمع فجأة في مخيلته ، فقال في نفسه : لاريب انه بائع الجلود ! وسأله بصوت خفيض :

— لماذا كلفت نفسك العناء بأحضار هذه الهدية ؟ ما كان ينبغي

لك ان تفعل ذلك !

فنظر اليه الرجل بأستحياء ، وتمتم :

— اريد ، كنت اريد... اتيت لأتمنى للسيدة حياة طويلة والى ...

ثم توقف عن الكلام ليحل بأصابعه المرتجفة الرزمة التي يحملها .

واخرج أخيراً اربعة حروف صغيرة من النحاس المطلي بالفضة

تعني «حياة طويلة تضيء حياة الجبال في الجنوب» .
ومرت زوجة الهسيوتساي بهما فشعرت بالاشمئزاز من الرجل
الغريب وابتعدت . اما صاحب البيت فقد اقتاد الضيف الجديد
الى المائدة حيث كان المدعوون ينظرون اليهما متهامين .

مرت ساعتان أكل المدعوون فيها وشربوا حتى اخذتهم سورة
الحمرة ، فبدأوا يلعبون ويتنادرون بصوت عال حتى كاد المنزل
يضج من عربدتهم . وظل بائع الجلود وحده صامتاً هادئاً ، رغم انه
قد شاركهم في اكلهم وشربهم ، دون ان يعيره احد منهم اهتماماً
او انتباهاً . ولما بدأ تأثير الخمر يتبدد من رؤوسهم ، طفق كل
واحد يأكل على استعجال صحناً من الارز ، ثم ينتم الجاملات
المألوفة وينادرن الدار . وهكذا تفرقوا واحداً بعد آخر مبتعدين
بمشاعلهم المضيفة في ظلمة الليل .

ظل بائع الجلود يأكل الى النهاية ، ولم يبتعد عن المائدة الا
لما بدأ الخدم بنقل أواني الطعام ، فانسحب حينئذ الى زاوية معتمة
على الشرفة ، كانت تنتظره فيها زوجته التي أجراها .

سألت المرأة زوجها بحزن :

— لماذا أتيت ؟

— اتحسبيني قد اتيت لاني اردت ان آتي ؟ لم يكن بوسعي .

ان اصنع غير هذا ...

— لماذا تأخرت اذن الى هذا اليوم ؟

— أعتقد ان كان من اليسير علي ان اجد المال اللازم

لشراء هدية ؟ لقد بحثت في كل مكان ، ورجوت كل انسان ،

واستجديت طوال النهار . ثم كان عليّ ان اذهب الى المدينة لشراء الهدية . فتعبت وجعت لكثرة ما مشيت . ولهذا وصلت متأخراً . سألت المرأة متلهفة :

— وكنز الربيع ؟

فأرسل الرجل تنهدة كبيرة وقال :

— من اجل كنز الربيع اتيت .

فرددت المرأة كلامه منعورة :

— من اجل كنز الربيع اتيت ؟

فقال ببطء :

— لقد هزل كنز الربيع طوال الصيف بشكل مخيف ، وفي الحريف وقع مريضاً . وليس لديّ طبعاً المال اللازم لاجتماع الطبيب وشراء العلاج . ان صحته تزداد سوءاً ، واعتقد انه سيموت اذا لم نضع من اجله شيئاً . وقد اتيت اطلب منك مالاً ...

خبل للمرأة ان ثمة هدره غضبي تمزق قلبها وتنهش احشاءها . ارادت ان تبكي ، لكن كيف تستطيع الاسترسال في البكاء في مثل ذلك اليوم الذي يعرب فيه كل انسان عن امانيه من اجل كنز الحريف ! فأمسكت دمعها وقالت :

— وانا ايضاً ، لا مال عندي . انهم لا يعطونني هنا سوى « ماور » كل خمسة عشر يوماً لنفقاتي . ولم يكن لي قط نفقات خاصة ، فكنت انفق ما يتجمع لديّ على الطفل . فما العمل ؟

وصمتا بوهة ثم سألت المرأة :

— من يعنى بكنز الربيع الآن ؟

— تركته عند جارة لنا . كنت اعتقد ان في استطاعتي العودة
هذا المساء . يجب ان اعود حالاً .

وبداً يجفف دموعه ، بينما قالت المرأة والعبرة تختنقها :
— انتظر قليلاً... سأرى ان كان في وسعي الحصول منه على
شيء من المال .
وابتعدت .

بعد أيام سأها المسيرتساي فجأة ذات مساء :
— اين خاتم الزمرد الأخضر الذي اعطيتك اياه ؟
— اعطيته اياه ، ذلك اليوم . أخذه ليرهنه .
فقال بغضب :
— ألم اعطك خمسة دولارات ؟
— لم تكن الخمسة دولارات لتكفي :
— اه ، نعم ! انك تفكرين دائماً بزواجك الأول وولدك الأول ،
وغم كل ما اصنعه من اجلك . كاث بودي ان ابقىك سنتين
اخرين ، ولكن الأفضل ان تذهبي في الربيع .
فكان ألم المرأة أقوى من ان يحملها على البكاء .
وبعد أيام عاد الى الموضوع نفسه :
— لقد كان ذلك الخاتم كنزاً ، وقد اعطيتك اياه كي تعطيه
في المستقبل لكنز الحريف . لم يجرى في بالي قط انك سترهنيه
عند اول فرصة . ومن حسن الحظ ، ان الآخر لا يعرف عن هذا
الأمر شيئاً .

بدأت المرأة الشابة تصبح ، يوماً بعد آخر ، أكثر شحوباً
 واشد هزالاً ، وغدت عيناها ذابلتين ، بينما ازدادت اذناها اصفاء
 للشبهة والسخرية اللتين كانت تتعرض لهما . وكانت دائمة التفكير
 بكنز الربيع ومرضه ، تترقب مرور صديق من قريتها ، او مسافر
 يستطيع ان يمر بتلك القرية لينقل اليها نبأ عن ولدها . كانت
 تنتظر بالملق عفيف نبأ شفاء كنز الربيع ، ولكن هذا النبأ لم
 يأت رغم ان انتظارها قد طال . وقد ارادت ان تستقرض
 دولاراً أو دولارين تشتري بهما أشياء مفرحة ، ولكن لم يكن
 هناك من يحمل هذه الأشياء الى كنز الربيع . ولقد كانت تنفق
 اكثر أيامها وهي جالسة على قارعة الطريق ، وكنز الحريف بين
 ذراعيها ، تراقب كل من يمر من هناك ، علها تعرف واحداً منهم ،
 لكن جهودها ذهبت أدراج الرياح ، ولم توفق الى بغيتها .
 وكان سلوك المرأة الشابة يثير السيدة العجوز ، فتقول لزوجها
 دون انقطاع :

— ألا ترى انها غير راضية عن بقائها هنا ، وانها لا تحلم الا
 بالعودة سريعاً الى منزلها القديم ؟

وكثيراً ما كانت تصرخ وهي قائمة ، وكنز الحريف واقف على
 صدرها ، صراخاً مفاجئاً مرعباً يوقظ الطفل ويبعثه على البكاء ،
 فيهرع الرجل اليها ويلاحقها بأسئلته الملحة :

— ماذا بك ؟ ماذا حدث لك ؟

ولكن المرأة لا تجيب ، بل تحنو على ابنها تداعبه وتناغيه .
 ويتابع هو أسئلته :

— هل حملت بأن ابنك قد مات ؟ لقد صرخت بقوة شديدة .
ان صراخك قد ايقظني .
وقد اجابته مرة :

— كلا ، كلا ، لقد خيل اليّ اني أرى امامي قبراً .
فكف عن سؤالها بعد ذلك . ولكن الرؤيا الخفيفة لم تكف
عن ترويعها ، حتى بدأت تتسنى لو تدفن في هذا القبر الذي لا تقنأ
تلاحقها رؤياه .

أوشك الشتاء على الانتهاء ، وبدأت العاصفير التي اقترب موعد
رحيلها تزقزق تحت نافذتها دون انقطاع ، مذكرة اياها بقرب
رحيلها . ثم فطم الطفل ، وأحضر الكهنة لأعانه بصلواتهم على
اجتياز هذه المرحلة العصيبة . وتقرر أخيراً الفراق ، فراق
الأم عن ابنها الى الأبد .

في ذلك اليوم سألت الخادمة فان زوجة الميسوتساي :
— هل أرسلت في طلب محمل ؟

فأجابت السيدة العجوز وهي تعد حبات مسبحتها :
— فلتسر... هل لديها مال لتدفع اجرة الجمالين ؟ قيل لي ان
ليس لدى زوجها ما يأكله ، فهي ليست اذن بحاجة الى هذا
الدلال . والمكاث ليس بعيد مع ذلك . في عهد شبابي كنت
أسير من عشرة اميال الى خمسة عشر ، وان ساقها لأطول من
ساقتي... لن يستغرق سيرها سوى نصف النهار .

وفي الصباح الباكر ، انشأت الأم الشابة تلبس كنز الحريف
ثيابه ، ودموعها تنهمر بغزارة ، والطفل يردد باستمرار « خالتي !

خالتي ! ، ذلك ان العجوز كانت قد أمرت بأن يلقن الطفل دعوة امه بهذا الأسم ومناداتها هي « ماما » .

كانت الأم تجيب طفلها بالعبرات الصامته . وقد حاولت ان تقول شيئاً . كانت تريد ان تقول مثلاً : « اننا سنفترق يا طفلي المعبود ... ان « ماما » ستعنى بشأنك ، فكن لطيفاً معها ولا تفكر في أبداً . » ولكن الكلمات لم تكن لتجد سيلاً الى شفتيها ، ولم يكن الطفل ، وهو ابن سنة ونصف السنة ، ليستطيع ان يفهم ما تريد ان تقول !

دنا الميسوتساي حزينا ، ووضع يديه تحت ذراعيها ، وكانت في يده عشر قطع من النقود كل واحدة بعشرين سنتاً ، فأعطاهما أيأها وقال بعذوبة :

— خذي هذين الدولارين .

فأبتعدت عن الطفل ، ووضعت المال في جيبها الداخلي . ودخلت السيدة المسنة في تلك البرهة ، فتبعت بانظارها الميسوتساي الذي كان ينسحب من الغرفة ، ثم قالت :

— أعطني كنز الحريف كي لا يبكي عندما تذهبين .

فلم تجب ، ولكن الطفل ابى الذهاب مع العجوز ، وضربها مرات متوالية على وجهها ، فقالت غاضبة :

— حسناً ، ابقه قليلاً ، وتناول طعامك معه ، ولكن اعطني

أياه فور انتهائك .

ودعتها فان الى تناول الطعام قائلة لها برفق :

— منذ اسوعين وانت لا تأكلين شيئاً ، وقد هزلت كثيراً .

هل رأيت وجهك في المرأة ؟ كلي على الأقل كأساً من الأرز ،
 فان امامك مسيرة عشرة أميال .
 فاجابت المرأة بصوت هادىء :
 - لقد كنت طيبة معي يا فان .

كانت السماء عالية في الأفق ، والنهار جميل رائع .
 لم يشأ كنز الحريف ان يفارق امه ، ولكن العجوز انتهت
 بانتراعه منها عنوة ، فطلق يضرب بطن المرأة بقدميه الصغيرتين ،
 ويشد شعرها بيديه ، وهو لا يفتأ يصرخ بكل قواه ، فقالت الأم :
 - دعوني ابقى الى ما بعد طعام الغداء .

فانكفأت السيدة العجوز غاضبة ، وقالت :

- هيني حوائجك بسرعة وارحلي ، فقد حان وقت ذهابك .
 كان يجيل الى الأم ان صراخ الطفل يأتي من بعيد . ولما
 بدأت بجمع حوائجها ، سمعت صراخه يعلو مرة اخرى . فحاولت
 الخادمة فان ات تشجعها ، بينما كانت تراقب ما تحمل معها من
 متاع . واصبحت الأم اخيراً على استعداد للذهاب ، فوضعت حزمة
 ثيابها تحت ذراعها وخرجت .

ولما اجتازت المنزل سمعت صراخ كنز الحريف مرة اخرى ،
 فظلت هذه الصرخة الاخيرة تلاحقها وتدوي في اذنيها بعد مسيرة
 ميل كامل .

كان الطريق يمتد أمامها ، تحت الشمس الحارة ، طويلاً لا حد له
 كالسواء نفسها . ولما وصلت الى النهر ، خطر لها ان تستريح من

رحلتها الشاقة بالقاء نفسها في مائه الصافي كالمرآة . ولكنها ما لبثت ان تابعت سيرها أشبه بطيف شارد .

وعند الأصيل ، قال لها فلاح مسن التقته في كوخ على مقربة من الطريق ، انه ما يزال أمامها خمسة اميال حتى تبلغ قرينتها . فقالت له :

— أتستطيع ان تحضر لي كرسيًا يا عماء ؟ لم يبق في وسعي مواصلة المسير الى المنزل .

— هل انت مريضة ؟

— أجل !

وبعد ان جلست في الكوخ سألتها الرجل :

— من اين أنت آتية ؟

فترددت قليلاً ثم أجابت :

— اني اسير نحو هذه الجهة . كان يخيل اليّ في الصباح اني

استطيع اجتياز الطريق على قدمي .

فتمتم الرجل بضع كلمات ، ثم أحضر حمالين وكرسيًا .

عند المساء شاهد أهل قرية بائع الجلود ، في الشارع الطويل

الضيق ، كرسيًا يحملانه رجلان منهوكان ، وعليه امرأة نصف حية ،

ذابلة الوجه كورقة ملفوفة مصفرة يابسة ، وعيناها مغلقتان ، ونفَسها

يتردد ضعيفًا بطيئًا . فأخذ الناس ينظرون اليها بدهشة وشفقة ،

بينما التف حول الحمالين رهط من الصبيان يتدافعون ويتصايحون

كأن اعجوبة قد حدثت في قرينتهم .

وكان كنز الربيع يسير بين أولئك الصبيان ، وهو يصرخ

كانه يقود قطيعاً من الخنازير ، ولكنه ما لبث ان بسط يديه دهشةً لما رأى الكرسي يتجه نحو الشارع المفضي الى بيته . وحينما توقف الكرسي أمام بيته نفسه ، بدأ يفحصه بانتباه واستغراب ، بينما احتشد الصبية باستحياء حول المرأة .

نزلت المرأة عن كرسيها وهي من الذهول بحيث لم تلاحظ ان كنز الربيع كان هناك باطماره البالية وشعره المبعثر . على انها لم تلبث ان تبينته فجأة وعرفته ، لأنه لم يكبر منذ غادرته الا قليلاً ، فصرخت منتحبة :

— كنز الربيع !

فساورت الأطفال دهشة عظيمة . أما كنز الربيع فقد دعر وهرع الى حضن أبيه الذي كان مستلقياً في المنزل . ظلت المرأة وقتاً طويلاً وهي جالسة في الغرفة القذرة المظلمة دون ان تبدي حركة أو تتبادل مع زوجها أية كلمة . ولما هبط النسق وخيم عليهما ، رفع الرجل رأسه المحني وقال لأمراته :

— تحسنين صنعاً اذا هيات العشاء .

فنهضت بجهد كبير وسارت الى زاوية الغرفة متعاملة على نفسها ، ثم قالت بصوت خفيض :

— ان صندوق الأرز فارغ .

فضحك الرجل ضحكة متشنجة ، وقال :

— ان معيشتك في بيت مثرٍ قد أثرت فيك . الأرز ؟ انه في

علبة لفائف التبغ !

وفي تلك الليلة قال الرجل لأبنة :

— ستزفد مع امك يا كنز الربيع .

فأخذ الطفل المزوي قرب المدفأة ينتحب . واقبلت امه نحوه

متممة :

— كنز الربيع ... يا عزيزي !

ولكن لما مدت يدها لتداعبه وثب بعيداً عنها . فصرخ

الأب به :

— هل نسيت العادة ؟ انك بحاجة الى ضرب مبرح .

استلقت الأم على الفراش الضيق النابي ، عيناها مفتوحتان ،

وكنز الربيع متمد الى جانبها كأنه غريب عنها . وكاث يخيل

اليها ، في ذهنها المضطرب ، ان كنز الحريف السمين الفائق ، هو

الذي كان هناك ، الى جانبها . فتمد ذراعها لتمسك به . ويلتفت

كنز الربيع في نومه ، وهو يشخر قليلاً ، فتضمه الى صدرها بقوة ،

فيخبيء رأسه بين ثدييها .

والليل الصامت ، البارد كالموت ، الطويل ، الذي لا نهاية له ،

يجر نفسه ... ويجر نفسه ...

سيمون القاسى

للكاتب الانكليزي ارنود موريزون

ما يزال سلوك سيمون الغريب تجاه زوجته سرّاً يكتنفه الغموض . فقد كان يبدو للنساء الحي مثلاً أعلى للزوج الرصين المحب الهادىء ، وكانت زوجته مخلصه له وفيه بعهده ، تعمل جاهدة لتوفر له أسباب السعادة ، فكيف يجزيها على صنيعها شر الجزاء ، وهو ذلك الزوج الامثل ؟ ترى أجن الرجل فجأة ؟

وقد كانت السيدة سيمون ، قبل ان تبني بهذا الرجل ، أرملة رجل آخر يدعى فورد سافر في البحر على مركب تجاري غرق بمن فيه ، على مقربة من رأس الرجاء الصالح .

تقول السيدة سيمون ان العناية الالهية هي التي سافت فورد الى ذلك المصير ، لأنه هجر زوجته وبيته ، ورضي ، رغم خبرته في فن الميكانيك ، ان يسافر على ظهر المركب التجاري كعامل بسيط ، كأنه هارب من عقوبة الاعدام ...

وهكذا اضطرت المرأة لاتخاذ سيمون زوجاً لها . وكان طيب الخلق سمح الطبع ، فقال الناس انه وجد فيها المرأة المثلى ، وانها تبذل وسعها لتجعل منه الرجل الكامل .

وما هي الا ايام معدودة مرت على زواجهما حتى هجر التدخين ، وصار يختلف في ايام الآحاد الى الكنيسة ، نظيف الثوب أنيق الهندام ، ويضع في صينية الصدقات بنساً واحداً تعطيه اياه زوجته

لهذه الغاية ، لأنها هي التي كانت تتصرف بمرتبه وتنفقه على شؤون المنزل بنظام محكم . فاذا ما عاد من الكنيسة ، نضا عنه ثياب الاحد واعادها الى مكانها من الخزانة ، بعد ان ينفض عنها ما علق بها من غبار ، ثم ينعم بالراحة التامة ، خلافاً لأيام الأسبوع الأخرى التي يشتغل فيها ، فضلاً عن عمله في النجارة ، بتنظيف الملاعق والسكاكين والالواني النحاسية ، ومسح الاحذية وزجاج النوافذ ، وغير ذلك من الشؤون المنزلية كمرافقة زوجه الى السوق ليحمل ما تشتريه من الخضار .

كانت فضائل السيدة سيمون اكثر من أن تحصى ، واطهر هذه الفضائل براعة الإدارة وحسن التدبير . وهي تضع في مكان حريز كل بنس تقتصده من الستة والثلاثين شلناً التي يقبضها زوجها في نهاية كل اسبوع . واذا كان تومي سيمون لا يعرف مقدار المال المتوافر لديه او مكانه ، فتلك خطة حكيمة درجت عليها زوجته حرصاً على هناء الاسرة . وما شأنه وهذا ، ما دام يجد في البيت كل ما يجد الرجال في بيوتهم !

وكانت السيدة سيمون تعنى بنظافة البيت عناية خاصة ، فاذا ما عاد زوجها من عمله لم يسمح لنفسه بالدخول قبل ان يخلع نعليه ، وتحاشى جهده ان يسير على السجادة المبسوطة في الدهليز لأنها تخص زوجته أولاً ، ولأنه ينبغي لها ان تظل نظيفة أمام أعين المارين من سكان الحي . فاذا اقبل بعد ذلك على غسل يديه وقدميه ، أشرفت زوجته على هذا العمل ، لئلا يسيل الماء الى أرض المطبخ ، أو تتلطح بعض الالواني ، او يدوس بساط الغرفة بقدميه

المبلتين .

رافقت هذه المرأة الحكيمة المخلصة تومي سيمون ، في أول عهدهما بالزواج ، الى حانوت كبير ، وانتقت له الثياب بنفسها لأنها تعرف ان الرجال لا يحسنون الانتقاء أو الشراء . ثم اكتشفت مكاناً تباع فيه فضلات الاقمشة بأسعار زهيدة ، فعدلت منذ ذاك عن شراء الالبسة الجاهزة الى شراء هذه الفضلات ، وطفقت تفصلها لزوجها وتخيطنها بيديها . وفي اليوم الذي اكتشفت فيه هذه الطريقة ، خاطت له بذلة كاملة لفققتها من قصاصات مختلفة الاقمشة والاجناس والالوان . فلما ارتداها تومي يوم الاحد ومضى الى الكنيسة ، وجد أنها ضيقة حتى ليكاد يتعذر عليه السير بها لكثرة ما تشد على جسده وأعضائه . وكانت القبة عالية علواً شديداً ، والكتفان منخفضتين ، فاضطر أن يبط رقبته ويخفض كتفيه . ولم يلبث أن اعتاد السير والجلوس بتلك الثياب ، اذ اتخذت اعضاؤه بالأستمرار أوضاعاً جديدة تتلائم معها ، ولكنه لم يستطع ان يكف عنه السنة رفاقه يقابلونه بعاصفة من الهزء كلما طلع عليهم ببذلة جديدة ، لأن السيدة سيمون كانت تفصل الثياب الجديدة على غط الثياب القديمة ، فبدلاً من ان يدخل عليها شيء من الاصلاح كانت تزداد سوءاً .

وقد رجا تومي زوجته مرة ان تشتري له ثياباً جاهزة ، أو ان تعهد بخياطتها الى خياط محترف ، اذ يؤلمه ان ترهق نفسها بهذا العمل المضني فوق ما تتحمل من أعباء البيت ! فأخذ منها الغيظ كل مأخذ وقاطعته قائلة :

— كفى... كفاك هذياناً... انني أعرف حقيقة مرادك . انت لا
 يهلك ان اشتغلت زوجتك قليلاً أو كثيراً . ولكن الذي يهلك
 ان تلقي بأموالك من النافذة . اذهب ان شئت الى خياط يسلبك
 مالا تكسبه بعرق الجبين . أهذا هو جزائي منك على تضحياتي
 المستمرة ؟ ان من يسمعك يخجل اليه ان الفضة تنبت بين بلاط
 منزلك !

فلزم تومي الصمت ، ولم يعترض بعد ذلك على مشاريع زوجته
 الاقتصادية . ولما اعتزمت ان تقص له شعره لتوفير المال الذي
 يدفعه للمزين ، لم يجرأ أيضاً على الاستنكار ، فراحت تقوم بهذا العمل
 بمهارتها المعروفة .

ودامت هذه السعادة سنوات .

وفي ذات مساء جميل من أماسي الصيف المذهبة بأشعة الشمس
 الغاربة ، ذهبت السيدة سيمون الى السوق ، متأبطة سلتها الصغيرة ،
 لتشتري بعض لوازمها ، وتركت زوجها في المنزل . فما كادت
 تغيب في منعطف الشارع ، حتى شرع تومي بغسل الصحون والملاعق
 ونهية مائدة العشاء ، ثم جلس يتأمل السروال الذي انتهت زوجته
 من خياطته في ذلك النهار ، وكان معلقاً الى جانب الباب ، ضيق
 الساقين ، واسع الخصر ، كثير النتوء والتعاريج . فاستيقظ في نفسه
 شيطان التجربة ، وبدأ يهمس في اذنه كلمات مبهمه لم يشأ ان
 يصغي اليها لأنه لا يريد ان ينسى كم هو مدين لجميل زوجته
 لصنعها له امثال هذا السروال . ولكن الشيطان الحيث ما يروح
 يراوده مذكراً اياه بالكلمات الساخرة التي يناله بها رفاقه كلما سار

في الشارع بمثل هذه الثياب المزركشة ، ثم هتف به :
 - التق به هذه الثياب الى صندوق الاقذار ، فهي لا تستحق
 اكثر من ذلك .

فسطا عليه الذعر ، وأشاح بوجهه عن السروال ، وفكر في ان
 يعاقب نفسه على تلك الحواطر السوداء . بأن يغسل الصحنون
 والملاعق مرة ثانية . لكنه ، لما اتجه نحو المطبخ ، لاحظ ان باب
 المنزل مفتوح على مصراعيه ، فهرع لأغلاقه ، لأن هذه العادة من
 عادات الطبقة السفلى كانت تغضب السيدة سيمون كثيراً . ولما
 نزل الدرج ، جالت عينه في الرواق فشاهد رجلاً يرود ثمة وينظر
 الى الباب بفضول . وكان وجه الرجل نحاسياً ، وبداه في جيبه ،
 وعلى رأسه قبعة نوتي . فتقدم من تومي وسأله :

- هل السيدة فورد في بيتها ؟

فقال تومي : ماذا تقول ؟

- السيدة فورد ... اوه ، المرأة التي تدعى اليوم السيدة سيمون .

وغمز الرجل تومي بعينه ، ثم سأله :

- انت زوجها ، أليس كذلك ؟

- بلى .

فأخرج الرجل غليونه من جيبه ، وانفجر ضاحكاً بسخرية ،

ثم قال :

- ليباركني الله ، فأنت الرجل الذي أبحث عنه .

حاول تومي ان يغلق الباب ، ولكن محدثه هتف به :

- لا تعجل يا صديقي ، فقد قدمت لأفضي اليك بمحدث هام .

وقطب الرجل حاجبيه ، فشعر تومي بشيء من الضيق ، ولم يجد
بدأً من ان يسأل الرجل :

— ماذا تريد مني ؟ أنا لا اعرفك .

— اذن فاغفر لي حريتي ، واسمح لي ان اقدم لك نفسي ...

ورفع قبعته باستهزاء صارخ ، وقال :

— اني ادعى بوب فورد العائد من العالم الآخر . لقد غرقت

مع ركاب الباخرة موالتان ، منذ خمس سنوات ، وعدت الآن
لاستعيد زوجتي .

استطال وجه تومي دهشة ، وأخذت أصابعه تبحث بشعره في
حيوة ، وحقق في الرجل طويلاً ، وتطلع الى السماء والى الشارع ،
ثم عاد فحقق في الرجل العائد من العالم الآخر ، ولم يجد ما
يقوله . فأعاد بوب قوله :

— جئت لاستعيد زوجتي . فهل لك ان نتحدث في أناة ؟

أغلق تومي فمه وكان قد فتحه دهشة ، وصعد الدرج امام
الرجل دون ان ينبت بكلمة . ولما لمح السروال المعلق الى جانب
الباب عاد الشيطان الحبيث يراوده :

« ان كان الرجل هو فورد حقاً ، وانه جاء لاستعادة زوجته ،
فهل يسره هذا الامر ام يحزنه ؟ »

ألقى تومي على نفسه هذا السؤال دون ان يجيب عليه .
لكن صوراً جمة جالت في مخيلته هي صور السراويل ، والاولاني
النحاسية ، والصحون ، والملاعق ، وزجاج النوافذ ، وكِيّ الثياب ،
فاحس انه يكاد يفقد وعيه .

وكانا قد وصلا الى غرفة الاستقبال ، فأمسك فورد بذراع تومي وقال له :

- متى تحضر ؟

- أحسب أنها لن تعود قبل ساعة .

كان تومي قد فتح باب الشرفة ، فنظر بوب حواليه ، وقال مشيراً الى اثاث الغرفة بغليونه القصير :

- ما اجمل منزلكم ! ان هذه الكراسي كانت لها ، او كانت لي ان كنت تريد ان نتكلم بصراحة .

ثم جلس وقال وهو مستمر في تدخين غلبونه :

- ها انا ذا اخيراً : بوب فورد الغريق الذي فقد مع ركاب الباخرة موالتان . ولكنني لم اغرق يا صاحبي . لماذا ؟ لان مركباً شراعياً انتشلني من اليم وأقطني الى سان فرنسيسكو . ثم جيت انحاء العالم بضع سنين .

ثم استطرد بعنف ، محدقاً في تومي سيمون تحديقاً ينم عن التهديد :

- وعدت الآن كي استعيد زوجتي .

فامتنع الكلام على تومي لشدة حيرته ، ولكنه ما لبث ان قال :

- انها ... انها لا تحب ان يدخن احد في هذه الغرفة .

- هذا صحيح . انا اعرف آنا . كيف نجدها انت ؟

- انا ... اني اساعدها في شؤون البيت .

- اعرف هذا . واراها على انك تفعل القدر والصحوث

والملاعتق . واعتقد بانها هي التي تقص شعرك . أرني رأسك . اجل
هذا صحيح . لكنه لم يتبادر الى ذهني مطلقاً ...

احمر وجه تومي خجلاً ، بينما تقدم بوب من السروال المعلق
الى جانب الباب ، وقال :

— واراهن على انها هي التي صنعت هذا ، وانها هي التي
تخيط ثيابك .

عاد شيطان السوء يوسوس لتومي قائلاً :
« لو استعاد هذا الرجل زوجته لصار السروال من نصيبه
ونجوت من عار ارتدائه بين اقراني . »

وجال في ذهن تومي انه لم يبق له عذر للبقاء في هذا المنزل ،
ما دام الرجل مصراً على استعادة زوجته وهو احق بها منه .
لكن فورد ما لبث ان قال :

— ان الوقت يمضي وعلينا ان نتفق على رأي . لا اريد ان
اكون سيء السلوك معك . انت تقرني طبعاً على التمسك بحقوقى .
لكنى ، وقد رأيت امامي شاباً مثلك يعيش باطمئنان ويريد ان
يحافظ على سعادته الزوجية الهادئة ، فاني اطلب ... اجل ، سأقدم
على هذا العمل المنكر من اجلك ، فاقبل ان تدفع لي خمس
ليرات استرلينية ، لا اكثر ولا اقل ، مقابل تنازلي عن حقوقي في
استعادة زوجتي .

لم يكن في حوزة تومي خمسة بنسات فكيف بخمس ليرات ،
فضلاً عن انه لا يريد ان يكون سبباً لتخلي رجل عن زوجته
الشرعية اكراماً له . فقال لمحدثه وهو يهم بمغادرة المنزل :

— قد يكون من العسير عليّ ان ابرح هذا المنزل ، لكنني سأقوم بواجبي كرجل ، فارحل عن هذه المدينة .
فامسك فورد بذراعه واعترض قائلاً :

— لا ... لا تصنع هذا . سأكون لطيفاً واقبل ثلاث ليرات مقابل تنازلي عن حقوقي الشرعية في هذا البيت وصاحبه . ليس هذا بكثير . تصور انني لن اعود ابداً ، ولن ارى امرأتني التي أقسمت على الامانة لعهدا . اني اخاطبك كرجل وأعدك بان اختفي عن الانظار مقابل ثلاث ليرات فقط . أليس هذا منطقياً ؟
— بلى ، انه لأمر منطقي ، بل هو فوق المنطق ! انه لكرم ونبيل . ولكنني لست بالرجل الذي يستغل طيبة قلبك وكرم عنصرك ليسلبك حقوقاً مقدسة . ايها السيد فورد ، ان آنا هي زوجتك ، وليس من حقني ان احول بينكما ، وإن ضميري ليأمرني بالرحيل ، وما عليّ الا ان اطيع صوت الضمير .
تقدم تومي خطوة اخرى نحو باب الغرفة ، فوقف بوب امامه وصرخ به :

— قف ، يجب ان تفكر في ما تقدم عليه . فكر بفراغ حياتك اذا لم يبق لك منزل تأوي اليه ، وامرأة تقضي حوائجك . انها حياة مؤلمة ومحنة . فلنتفق يا صاحبي . اترضى بان تدفع لي ليرتين ؟ لنقل ليرة واحدة . اني اخاطبك كرجل ، وأعدك بان لا تسمع صوتي بعدها ابداً . ولا تسمع احداً يتحدث عني . اني لا أطلب سوى ليرة واحدة تستطيع ان تستقرضها ان كنت لا تعرف ابن تحب ، آنا المال . اني لا أطلب سوى ليرة واحدة ...

ودق الباب حينئذاك دقتين متعاقبتين ، فتوقف بوب عن الكلام وسأل تومي وقد استولت عليه رعدة ظاهرة :

— من الذي يدق الباب ؟

فقال تومي : أنا ذاهب لأرى ...

وانحدر عجلان على السلم ، وظل بوب في مكانه ينصت بانتباه ، فسمع تومي يفتح باب المنزل ، ورن في أذنه صوت آنا وهي تقول له :

— الى أين انت ذاهب هكذا دون قبعة ؟

وسمع تومي يحبسها وهو يبعد عن المنزل :

— لا تنتهي بشأني يا آنا ... اصعدي الى المنزل ، فهناك من يريد

التحدث اليك ...

هرع بوب الى الشرفة ، واطل منها على الشارع ، فرأى شبح تومي يغيب تحت جناح العسق . فتولاه دعر شديد ، ولم يبطئ ان صعد الى حاجز الشرفة ، وامسك بعمود قائم هناك ، وما زال ينحدر عليه خافق القلب لاهث النفس حتى بلغ الارض واختفى بدوره في طيات الظلام . فلما صعدت آنا الى المنزل لم تر فيه احداً . وظل اختفاء تومي سيمون سرّاً شغل المرأة واهل الحي حقبة

من الزمن .

علم الحقد

لكاتب السوفياتى ميخائيل شولوخوف

الاشجار فى الحرب كالرجال ، لها مثل ما لهم من مصير خاص .
لقد رأيت غابة كثيفة حصبتها نيران مدفيعتنا ، فى مكان لاذ به
الامان ، بعد أن طردوا من قرية س ، وخيل اليهم انهم واجدون
فيه أمناً ، فاقتلهم الموت منه مع أشجار الغابة . فاذا يجذوع
الشجر صرعى الى جانب الجثث المبعثرة . ولم يستطع صمغ الصنوبر
العابق أن يغطي بشذاه تلك النتانة الباردة الخائقة ، نتانة الجثث
التي سمى اليها العفن ، فكأث الأرض ذاتها كانت ترسل ، من
أعماقها المنبوشة ، رائحة قبر عتيق .

كان الموت يسود ، برهته وصمته ، تلك البقعة الجرداء التي حرقها
قنابلنا . ولم يبق من الغابة العظيمة سوى شجرة من السنديان
ظلت قائمة بأعجوبة ، تهب الريح فتتايل أغصانها الجريح وتهامس
أوراقها اللامعة . فوقف جندي أحمر كان يرافقني ، وأمرّ بده على
جذع الشجرة بحنان ورفق ، وسأله بدهشة مخلصة وتأثر ظاهر :

— كيف نجوت يا صغيري ؟

والواقع ان نجاة هذا الجذع لعجيبة ، فأشجار الصنوبر قد
تساقطت تحت القنابل كأن فأساً حطمتها واحدة فواحدة . أما
أشجار السنديان فقد واجهت الموت بشكل آخر . وثمة قنبلة
المانية اخترقت سندية عتيقة كانت منتصبة على ضفة نهر صغير لا

اسم له ، فشقتها الى نصفين يبس أحدهما تماماً ، والتوى النصف الآخر نحو النهر ، فلما كان الربيع استعاد حياته واكتس بالورق الغض ، واليوم تغسل في مياه النهر الأغصان السفلى من هذه السديانة المجدوعة ، وتلح أغصان القمة على ان تمد أوراقها نحو السماء.

الملازم غيراسيموف رجل بائن الطول ، محدودب قليلاً ، ذو مكبين عريضين محددين كجناحي الصقر ، وهو جالس أمام متراس من الأسمنت ، يروي لرفاقه تفاصيل المعركة التي خاضها في النهار وهجوم الدبابات العدو التي صدها الجيش الاحمر .

كان وجه الملازم هادئاً ، ويكاد ان يكون جامداً ، وعيناه قد قرحها السهر . وكان يتكلم بصوت خفيض ، وهو يعقد أصابعه ويوخيا ، فتعبر هذه الحركة عن ألمه الصامت وتفكيره العميق ، لكنها لا تنسجم البتة مع هيكله العملاق ووجهه الذي تصرخ الرجولة فيه .

وصمت بغتة وقد تبدلت معالم وجهه ، فشحب خداه الأسمران ، وعرت فكبه رعشة ظاهرة ، واشتعلت عيناه بحقد رهيب كان من القوة بحيث دفني الى الألتفات لرؤية الشخص أو الشيء الذي ينصب هذا الحقد عليه . فشاهدت ثلاثة أسرى من الالمان يجتازون الغابة ، وخلفهم خفير أحمر يمشي متباطئاً ، مداعباً بندقيته التي تلمع حربتها في الشمس . والاسرى الالمان يسرون أمامه بتثاقل ، وينقارون أقدامهم مكرهين .

وكان الالمانى الذي يسير في طليعة رفيقيه ، في منتصف العمر ،

ذا خدين اجوفين تغطيها لحية كثة شقراء . فلما بلغ المتراس ،
"نقى علينا نظرة مرائية أشبه بنظرة الذئب ، ثم أشاح عنا بوجهه
متابعاً سيره وهو يعدّل وضع قبعته المعلقة بحزامه . فوثب
غيراسيموف حينئذ صارخاً بالحقير بصوت قاس :

— هاي ... اجبني ، انت ، اتحسب انك ذاهب بهم الى النزهة ؟
ضاعف خطاك ، واسرع قليلاً ... أسمع ؟
وبدا كأنه يريد ان يقول شيئاً آخر ، لكن شدة اضطرابه
حالت دون ذلك ، فانشى عجلان ، وهبط درجات المتراس . ولاحظ
المفوض السياسي دهشتي فهمس في اذني :

— انها الأعصاب ! لقد كان اسيراً لدى الألمان . ألا تعرفه ؟
حادثه يوماً . لقد عانى هناك أهوالاً شداداً ، فلم يبق في وسعه
ان يرى هناريين أحياء . أقول : أحياء ، لأنه ينظر الى الاموات
منهم بلذّة وغبطة . اما اذا شاهد الأمرى فهو يغلق عينيه وبطل
جامداً شاحباً ينضح جبينه عرقاً . وقد اتفق لي أن رافقه مرتين
في بعض الهجمات التي شنتها جيوشنا ، فاذا به قوي كالجواد
الأصيل . لقد شاهدت كثيراً من ضروب القتال ، لكني لم أشهد
أذهب أو أروع من ضربه بمؤخر بندقيته أو طعنه بحربتها .

في تلك الليلة أصلتنا مدفعية الألمان الثقيلة ناراً متواصلة .
كانت طلقة المدفع تدوي بعيداً ، بانتظام ، وفي فترات متساوية .
وبعد ثوان يتردد عواء القنبلة في السماء الصافية ، فيشتد فوق
رؤوسنا ، ثم يبتعد ، ثم نشهد خلفنا ، على الطريق التي تقاطرت

عليها في النهار قوافل الذخيرة في سبيلها الى الجبهة ، لهيباً يضيء الأفق بنور أصفر ، ونسمع صوت الانفجار الراعد .

وبين انفجار وآخر ، حينما كانت السكون يسود الغابة ، كانت الصراصر والخفادع التي اقلقتها طلقات النار ، تتنادى وتتجاوب بحفوت في غدير قريب .

كنا متمددين تحت شجرة بندق ، والملازم غيراسيوف يحدثنا عن نفسه ، وهو يطرد البرغش بغصن في يده . وها أنا أنقل قصته كما استطاعت ذاكرتي تسجيلها :

« كنت قبل الحرب عاملاً ميكانيكياً في سيبيريا الغربية ، وقد دعيت الى الأنضواء تحت العلم السنة الماضية في اليوم التاسع من تموز . وكان لي زوجة وأطفال وأب قعيد . فلما ودعتهم بكنت زوجتي وقالت لي : « دافع عن الوطن ودافع عنا ، واذا وجبت التضحية بحياتك من أجل النصر فلا تبخل بها . » وأذكر أنني أجبته ضاحكاً : « آه ... إلى هذا الحد ؟ هل انت زوجتي أم أنت داعية في الأسرة ؟ اني لست طفلاً ... أما بشأن القضاء على الفاشيست ، فبوسعك ان تكوني مطمئنة . »

أما اني فكان اقوى عزماً وأهدأ جأشاً ، لكن لم يفته هو ايضاً ان يصدر اليّ بعض أوامره :

— منذ عصور طويلة واسرتنا تنجب للوطن حديداً صلباً ، فيجب ان تثبت في هذه الحرب أنك من هذه الاسرة ... يجب ان تكون رجلاً من حديد ... لقد جعلت حكومتك منك ضابطاً اضطياطياً قبل الحرب ، فينبغي لك ان تنقض الآن على

العدو ببسالة !

— سيكون ذلك يا أبي ...

ومررت ، في طريقي الى المحطة ، بمكتب لجنة الحزب المحلية ، وكان سكرتيرنا هو الغاية في الجفاف ، لا يصفي الا الى صوت العقل ، فقلت لنفسي : « اذا كان أبي وزوجتي قد أثقلاني بدعايتهما ، فما عسى ان يكون شأني مع سكرتير اللجنة ؟ لا ريب في أنه سيلقي عليّ خطاباً يستغرق نصف ساعة على الاقل ! »
لكن الأمر كان خلاف ما قدرت ، فقد ابتدرني السكرتير بقوله :

— انتظر يا غيراسيموف ، فانه لينبغي لنا ، على مألوف العادة الروسية ، ان نتحدث هنيهة قبل رحيلك .

فجلسنا بضع ثوان صامتتين ، ونفسي تهجس بأن هذا اليوم مليء بالمعجزات . وما لبث السكرتير ان قال :

— ان كل شيء واضح ، ايها الرفيق غيراسيموف . لقد عرفتكَ يوم كنت أقصر من جزمة ، وكنت تعقد على رقبتك ربطة حمراء . منذ ذلك الوقت عرفتكَ . ثم رأيتكَ عضواً في منظمة الشباب الشيوعي . اني اعرفكَ شيوعياً منذ عشر سنوات . فاذهب واقتل تلك الأفاعي دونما رحمة . ان لجنة الحزب تضع فيك ثقها وهي تنتظر منك كثيراً ...

وتعانقنا لأول مرة ، وقد بدا لي رجلاً آخر غير تلك القطعة الخشبية التي كنا نتخيل أنه شبيه بها ، وشعرت بالحرارة تملأ قلبي ، وغادرته دهشاً طروباً .

وأضحكني زوجتي مرة أخرى ... ان امرأة تشهد رحيل زوجها الى الجبهة لا تستطيع طبعاً ان تكون مبتهجة ، لكن حزن ناديا قد شئت ذهنها . كانت تحاول ان تقول شيئاً ذا قيمة فلا تستطيع ان تجمع خواطرها الموزعة . ولما بدأ القطار يتحرك كانت ما تزال واقفة أمام العربة ، ويدها تضغط يدي ، فقالت لي على استعجال : « انتبه يا فيكتور ... وحاذر خصوصاً ان تتعرض للبرد ! » فأجبتها : « لا تفكري بهذا ، ياله من خاطر ، يا ناديا ... أتعرض للبرد ؟ أبداً ، أبداً ... ان الطقس هناك بديع ومعتدل ! » وقد تأملت لمفارقتها ، لكن كلماتها العزيزة الفارغة فرجت عني وشرحت صدري ، وشعرت في الوقت نفسه بغضب أصم يجيش في نفسي على الالمان . وتمت : « آه ! لقد هاجمونا ايها الجيران الغادرون ! حسناً ، جربوا اذن ان تثبتوا أمامنا ، فانكم ستلقون ضربة قاصمة ... »

لبث غيراسيموف بضع دقائق صامتاً ، مصيحاً بسمعه الى صوت الرشاش الذي ارتفع من الخطوط الاولى ، ثم انقطع الصوت فجأة كما ابتداء ، فتابع الملازم حديثه : « كان مصنعنا يتلقى قبل الحرب ما كنات ألمانية ، فصكنت افحص جيداً كل آلة منها فلا اجد فيها عيباً : ان بدأ بارعة قد صنعتها ! وكنت اقرأ مؤلفات الكتاب الالمان . وقد اعتدت ان افكر في الشعب الألماني بعاطفة من الاحترام ، فكان يغيظني ان يصبر شعب مجده ماهر مثله على النظام الهتلري المنحط ، لكنني كنت اقول : ذلك شأنه ! ثم بدأت الحرب في اوروبا الغربية .

ولما كنت شاخصاً الى الجبهة جعلت أفكر بأن للألمان
تكتيكاً قوياً وجيشاً لا يستهان به ، فمقاتلة مثل هذا الخصم تنطوي
على شيء من الأغراء . ولم اكن لأنتظر ، طبعاً ، ان يكون في سلوك
الاعداء بعض المروءة ، فأني تصرف شريف يرجى من الفاشيست ؟
على اني لم اتصور قط انني سأحارب سفلة أنخاء كأفراد الجيش
الهنري الذي عرفناه الآن .

وصلت وحدتنا الى الجبهة في أواخر تموز . وفي اليوم السابع
والعشرين من ذلك الشهر خاضت اولى معاركها . وكنا في البدء
قليلي الدربة والحذاقة ، ولم تدع لنا مدافع الهاون الألمانية فقرة
من الراحة . فلما كان المساء ألقنا الحرب بعض الشيء ، واخرجنا
الألمان من قرية كانوا فيها ، واسرنا منهم خمسة عشر جندياً . وما
ازال اذكر ان رجالي أحاطوا بالاسرى وقد فترت فيهم حرارة
القتال ، وبدأوا يقدمون لهم الحساء والتبغ والشاي ، ويربتون على
اكتافهم ، ويسمونهم « رفاقاً » ، ويسألونهم : « لماذا تحاربوننا
ايها الرفاق ؟ »

الا ان رجلاً من احدى الفصائل العاملة معنا ، قال لنا وهو
يتأمل هذا المشهد المؤثر : « شتما تعنون هؤلاء الأصدقاء الطيبين !
سرعان ما أصبحتم رفاقاً ! فليترككم ترون ما يصنع هؤلاء الرفاق
هناك ، في الخط الثاني من الجبهة ، وكيف يعاملون أسرانا والسكان
الآمنين ... » قال ذلك ومضى لشأنه ، ف شعرنا كأن ماء بارداً قد
أهرق علينا .

وما لبثنا ان رأينا ... حين انتقلنا الى الهجوم ! رأينا قري
اضعت رماداً ، وشيوخاً واطفالاً اعدموا رمية بالرصاص ، وجنوداً
حمرأ شطرت جثة الواحد منهم الى نصفين ، ونساء وعذارى وفتيات
صغيرات اغتصبن وقتلن ومثل بهن ...

وقد رسخت في ذاكرتي صورة احدى هؤلاء الفتيات . هي
صبية في الحادية عشرة من عمرها كانت ولا شك في طريقها الى
المدرسة حين قبض عليها الالمان ، وساقوها الى احد البساتين ،
فاغتصبوها ثم قتلوها . كانت تلك الطفلة صريعة بين كتبها ودفاترها
الممزجة بالدماء ... وقد تشبعت يدها على محفظتها الفارغة ، ونهشم
وجهها نهشياً شنيعاً بحراب الجنود . فسجيناً جثتها بأحدى الخيام ،
ولبثنا أمامها جامدين واجمين . ثم توزع الجنود في صمت ، فبقيت
وحدي وقد استولى علي جنون الغضب ، وأنا اتقم : « الجغرافية
الطبيعية ، بقلم باركوف وبولوفانكين ، لطلاب المدارس الابتدائية » .
لقد قرأت ذلك على غلاف احد الكتب المتناثرة بين الاعشاب ،
وكنت اعرف هذا الكتاب جيداً ، فان ابنتي ايضاً تدرس في
الصف الخامس ...

كان ذلك غير بعيد من روجينو . وقد رأينا في واد قريب
من مدينة سكفيرا مشهداً آخر . رأينا مكاناً للتعذيب نكل الالمان
فيه بالأسرى الحمر . هل دخلتم مرة الى مسلخ ؟ ان منظر ذلك
المكان لا يختلف عنه في شيء . جذوع بشرية ، لا أيد ولا أرجل لها ،
كانت تتدلى من اغصان الشجر . وثمة حفرة تكدست فيها كومة
من الجثث يستحيل على الناظر اليها ان يميز لأي من الضحايا هذه

الساق أو هذه اليد أو تلك القدم !

انه يستحيل على المرء ان يعبر بكلمات عن كل ما ارغمت على رؤيته ، لأن مثل هذه الكلمات لا وجود لها . ينبغي للمرء ان يشهد ذلك بنفسه كي يحيط بالحقيقة احاطة تامة .

توقف الملازم غيراسيموف عن الكلام برهة ، فسأله :

- أيستطيع المرء ان يدخن هنا ؟

فأجابني بصوت مبسوح :

- أجل ، لكن احجب لفافتك بيدك .

واستطرد بعد ان اشعل لفافة له :

« لقد كنا كالمجانين من الغضب ، بعد ان رأينا ما صنعه الألمان . وهل بأستطاعتنا ان نكون غير ذلك ؟ لقد ادركنا جميعاً اننا لا نحارب بشراً ، بل مخلوقات يسكرها الدم . رأينا الالمات يقتلون رجالنا ونساءنا ، ويفترسونهم ، ويعذبونهم ، بمثل الدقة والعناية اللتين كانوا يصنعون بها الماكينات . وقد اضطررنا ان ننكفئ أمامهم . سوى اننا كنا نقاتل كالشياطين .

كان اكثر رجالي من سيبيريا ، لكن ذلك لم يمنعنا من الدفاع عن الارض الاوكرانية بضراوة . وقد صرع في اوكرانيا كثير من رفاقي . الا اننا قتلنا عدداً اكبر من الألمان . وقد كنا نتراجع ، نزلين بالعدو في خلال تراجعنا ضربات ما كان يحسب ان مثلها يسدد اليه .»

عب الملازم غيراسيموف دخان لفافته وقال في شيء من

العدوبة :

« ألا ما أطيب الارض في اوكرانيا ، وما أجمل الطبيعة فيها !
كانت كل بلدة وكل قرية عزيزة علينا كأننا نعرفها منذ زمن
بعيد . ولعل مبعث ذلك ما بذلناه من دمنا بسخاء دفاعاً عن
تلك البقعة الغالية ، والدم ، كما تعلمون ، ينشئ أواصر وثيقة من
القربى . ومن ثم كاث قلب واحدنا ينكمش اذا تراجعنا عن
مكان ما ، وينقبض ، كمن حلت به اللعنة ... كان ذلك عسيراً علينا ،
بل كان الغاية في الألم ، فكنا نغادر البلدة او القرية ونحن نتحاشى
النظر اليها .

لم يكن ليهجس في خاطري اني قد اقع اسيراً لدى الالمان .
لقد جرحت في اراثل ايلول وبقيت بين رفاقي ، لكنني جرحت
ثانية في اليوم الحادي والعشرين من ايلول ، خلال معركة
دفيوسفسكا في منطقة بولتافا ، وقضي عليّ هذه المرة ان
اكون اسيراً ...

اخترفت الدبابات الالمانية جناحنا الايسر ، وتبعتها فرق المشاة ،
فأنشأنا نتراجع تفادياً من التطويق . الا اننا لم نكف عن القتال
لحظة واحدة . في ذلك النهار تكبدت فرقتي خسائر جسيمة ، فقد
رددنا مرتين هجمات الدبابات المعادية لنا ، واحرقنا منها ستاً ،
وعطبنا سيارة مصفحة ، وقتلنا في حقل من الذرة مائة هتلري ،
ولكن الالمان ما عثموا ان صوبوا الينا مدافع الهاون وارغمونا
على التخلي عن هضبة لبثنا ندافع عنها من الظهر الى الساعة
الرابعة . وكان النهار حاراً منذ الصباح ، والشمس تكاد تخنقنا

بلهيبها ، والالغام تتفجر واحد بعد آخر ، وقد أجهدنا الظماً حتى
 اسودت شفاهنا ، وأنا ، في غمرة ذلك كله ، ارسل الاوامر بصوت
 أجش ليس هو صوتي المعتاد . وفيما نحن نجتاز وادياً انفجر لغم
 بين قدمي ، فاخترقت قبعتي شظية طائشة ، وأصابتي في كتفي
 اليمين شظية اخرى ، ورأيتني في زوبعة سوداء من التراب ...
 لا اذكر كم لبثت فاقدأ رشدي ، ولكنني اذكر اني أفقت على
 صوت اقدام ثقيلة تقترب مني ، فوجدت نفسي في المكافئ نفسه
 الذي سقطت فيه ، وقد ضمد جرحي على استعجال ، ولف رأسي
 بعصابة يتدلى طرفها على صدري . فحاولت النهوض لأرى رفاقي ،
 فلم اقع ثمة على جنود حمر ، بل على المان يتراكمضون .
 لقد ثابت الي حواسي على ضجة أقدامهم ، فشاهدتهم بوضوح ،
 ومددت يدي التمس سلاحاً فلم اجد حتى قبلة يدوية ، فان
 رفاقي قد نزعوا عني أسلحتي والمحفظة التي تحتوي خارطة المنطقة .
 قلت لنفسي : « انه الموت يدامني ! .. » بماذا فكرت ايضاً في
 تلك اللحظة ؟ ان كان ذلك ينقص روايتك المقبلة فاخترع شيئاً ،
 لأنه لم يكن لدي حينذاك وقت للتفكير . كان الالمان قريبين جداً ،
 ولم اكن اريد ان اموت مستلقياً . أفهم ؟ لم اكن اريد او
 استطعت ان اموت مستلقياً . فجمعت قواي كلها ، ونهضت على
 ركبتي معتمداً الارض بيدي . ولما وصلوا الى جانبي كنت
 قد نهضت تماماً . لقد وقفت ، لكنني كنت انما ابل واخشي السقوط ،
 مخافة ان تمزقني الحراب وأنا على الارض . لم تبق في مخيلتي صورة
 احد الوجوه التي أهدقت بي لاغطة متضحكة . على اني اذكر

انني صرخت بهم : « هيا ! اقتلوني ايها الاندال ، اقتلوني قبل ان اقع !
 فضربني احدهم ببندقته على عنقي . فسقطت ، لكنني بادرت الى
 النهوض . فاتفجروا ضاحكين ، واثار الي احدهم ان اسير الى
 امام . فسرت والدم الجامد يصبغ وجهي ويسيل من رأسي ...
 دم حار لزج ... واشتد الم ذراعي حتى لم ابق قادراً على ان
 ارفع يدي . لقد داخلني وقتذاك رغبة مستبدة بالتمدد على الارض
 والانقطاع عن الحركة ... الا اني كنت أمشي ... كلا ، لم تكن
 بي رغبة في الموت ، وخصوصاً في البقاء أسيراً . وقد استطعت
 بكثير من العناء ان اغالب الدوار الذي اعتراني ، وان اواصل
 المسير . اني اسير ، اذن أنا حي ، واذن فان في وسعي القيام
 بعمل ما .

وكان الظمأ يعذبني ، فأشعر كأن في يحترق ، وان امام عيني
 حجاباً أسود يتموج . كنت فاقد الوعي تقريباً ، لكنني كنت اسير
 قائلاً لنفسي : « سوف اهرب متى شربت جرعة من الماء وتمتعت
 بقليل من الراحة . »

على طرف احد الغياض ، حشد الالمان اسراهم . وكان اكثر
 هؤلاء جرحى من الفرقة السوفياتية المجاورة لنا ، ولم ار بينهم
 سوى اثنين من فرقنا . ثم سألنا ملازم بلغة روسية سقيمة ، هل
 بيننا مفوضون او ضباط ؟ فالتزمنا الصمت . فاعاد سؤاله مرة ثانية
 قائلاً : « ليتقدم المفوضون والضباط خطوتين الى الامام . » فلم
 يخرج احد من الصف .

جال الملازم الالماني امام الاسرى المصطفين ، واختار ستة عشر رجلاً منهم تخيل فيهم الطابع اليهودي . كان يسأل الواحد منهم : « جود ؟ » ثم يخرجهم من الصف عنوة دون ان يسمع جوابه . وكان بين هؤلاء الستة عشر يهود وارمن وروس ذوو شعر اسود وبشرة نحاسية . فاقبضوا جميعاً الى جانب ، واعدموا امام أعيننا . اعدموا جملة بطلقات بندقية رشاشة . ثم قتلنا جندي الماني على استعجال ، فجردنا من محافظتنا وحاجاتنا الشخصية . وكان من عادتي ان لا احمل بطاقتي الحزبية في محفظتي مخافة ان افقدها ، وكانت حينذاك بحيب داخلي في سروالي ، فلم يعثر عليها اذ قتلت .

لعمري ان الانسان حيوان عجيب : لقد كنت اعلم ان حياتي معرضة لأكبر الاخطار ، فاني ان نجوت من القتل حين احاول الهرب ، فسأقتل لا محالة في الطريق ، لأنني لن استطيع ادراك رفاقي وقد نزع مني ذلك المقدار الكبير من الدم . لكنني مع ذلك ، لما بقيت لي بطاقتي الحزبية بعد تحريرهم ، شعرت بالسعادة تغمرني حتى نسبت ما أكابد من ظماً .

ساروا بنا نحو الغرب تحرسنا ثلة من الجند محدقة بنا من جانبي الطريق ، ويرافقنا عشرة من راكبي الدرجات النارية . وأرغمونا على الاسراع ، فنفدت قواي ، وسقطت مرتين ، لكنني كنت اسارع الى النهوض ، والى مواصلة السير ، ليقيني من أنني سأقتل في مكاني ان بقيت على الارض دقيقة واحدة بعد مرور القافلة . وقد حدث ذلك فعلاً للملازم كان يسير امامي . كان جريحاً منهوك القوى يتقدم وهو يثن ، مرسلًا بين حين وآخر صرخة عالية ،

وبعد ان اجتاز مسافة كيلومتر واحد صاح مثلاً :
 « كلا ، لم يبق في وسعي ابداً ... وداعاً ايها الرفاق ! »
 وجثم في منتصف الطريق . فحاولنا انناضه اذ مردنا به ، لكنه
 كان لا ينهض حتى يتهالك على الارض مرة ثانية . واني لأرى
 وجهه الشاحب وحاجبيه المقطبين وعينه الطافحتين بالدمع ، كأنني
 راه في حلم ! لقد بقي وراءنا ... ولما التفت لأراه ، شهدت احد
 راكبي الدرجات النارية قد حاذاه ، فأخذ مسدسه دون ان يترجل ،
 ووضع على اذن الجريح ، واطلق الرصاص . وقد قتل الالماني على
 هذا الفرار ، قبل ان نبلغ النهر ، بضعة جرحى آخرين تخلفوا
 في الطريق .

ولما تراءى لي النهر ، سقطت على وجهي فوق الارض . هل
 فقدت رشدي ؟ كلا . استلقيت وتعددت ، وقد امتلأ فمي بالتراب ،
 وجعلت أسناني تصطك ، ولم يبق بوسعي ان انهض . وكان رفاقي
 يرون بي فقال احدهم بعدوبة :

— انهض ، والا فانك ستقتل !

فأخذت امزق فمي ، وادخل اصابعي في عيني ، كي يحفزني الألم
 على النهوض ... وكانت القافلة قد تخطتني ، وسمعت الدراجة النارية
 تقترب مني ، فتحاملت على نفسي ، وقمت أتمايل كالسكران ،
 وأرغمت نفسي على اللحاق بالصفوف الاخيرة دون ان ارنو
 الى وراء .

كانت الدبابات والسيارات قد عكرت مياه النهر ، الا اننا
 شربنا ذلك الوحل الاحمر الفاتر ، وقد بدا لنا أعذب من ماء

الينبوع . وسكبت الماء على رأسي وكتفي ، فابتعدت ، واستعدت قليلاً من قواي ... الآن أستطيع مواصلة السير آملاً ان لا اقع ولا اتخلف في الطريق .

ما كدنا نبتعد قليلاً عن النهر ، حتى رأينا فصيلة دبابات المانية تقبل نحونا متدحرجة . ولما عرف قائد الدبابة الامامية اننا أسرى ، اطلق دبابته بيننا بملء قواها ، فتهاوت الصفوف الاولى منا ، وانسحقت تحت الدواب . وجعل الحفراء المتوجلون وراكبو الدراجات النارية يتضحكون ويتنادرون مع سائقي الدبابات الذين أخرجوا رؤوسهم من معاطفهم واخذوا يلوحون بأيديهم جذلاً . ثم اعاد الحفراء تنظيم صفوفنا ، وساقونا الى جانب الطريق . ولم يكن ثمة مجال للاستنكار ، فالألمان الفاشيست وحوش مرحة . لم أفكر بالهرب في ذلك المساء ، أو في تلك الليلة بطولها . فقد كنت ادرك اني لن أستطيع ذلك لكثرة ما فقدت من دمي ، وبسبب الرقابة الشديدة التي كانت تعاقب بقسوة كل محاولة من هذا القبيل . غير اني كثيراً ما لعنت نفسي بعد ذلك ، لأنني لم اجرب حظي يومذاك كما جرب آخرون .

وبلغنا في الصباح قرية عسكريت فيها وحدة المانية ، فكان الجنود الالمان يتراكمون في الشوارع لرؤيتنا . وقد أرغنا الحفراء على الحب كالحياد لتحقيرونا امام الوحدة الالمانية الذاهبة الى الجبهة . فكنا نعدو تحت السياط ، فاذا ما عثر احدنا او بقي في المؤخرة قتل فوراً .

في مساء ذلك النهار وصلنا ، اخيراً ، الى معسكر لأسرى

الحرب . فعهد خفراؤنا بنا الى حرس المعسكر .

اذا شبهت ذلك المكان بالجحيم ، فاني لا اكون قد قلت شيئاً ... لم يكن هناك غرف ، بل كان الاسرى يقفون او يستلقون في الساحة الموحلة او بين الاقدار . وكان يقدم الى كل واحد منا ، كل اربع وعشرين ساعة ، كأس من الماء وحفنة من حبوب الذرة البيضاء . وكثيراً ما كانت تنقضي ايام دون ان نعطي ايّ غذاء .

ولما تساقطت الامطار ، غاص الاسرى في الوحل الى ركبهم ، وكان البخار يتصاعد في الصباح من هؤلاء البشر كما يتصاعد من الجياد . وكل ليلة كان يموت منهم عدد كبير ، وبينك الجوع قوى الآخرين .

كانت جراحي تفضيني ، وقد بدأ الصيد يسيل منها وصارت تمج رائحة كريهة . وللازم رأسي صداع مبرح . وكان الالمان قد حشدوا الجرحى المشرفين في اسطبل قريب . فطلبت من الحارس ان يرسلني الى الضابط الموكل بمعالجتهم . وكان هذا الحارس ملازماً يعرف اللغة الروسية ، فأجابني :

— اذهب ايها الروسي الى طبيبك ، فهو سيعنى بك حالاً !

فلم افطن لسخريته ، وجرت نفسي الى الأسطبل مبتهجاً . فالتقيت الطبيب على الباب ، وهو ضابط عجوز انحله الوهن واوشك ان يجن لكثرة ما كابد . وكان الجرحى متعددين على روث الحيوانات ، وهم يكادون يختنقون من نفاثة الاسطبل ، وجراح اكثرهم قد فرخت دوداً ، فأخذ ينتزع هذه الديدان من يستطيع

ذلك منهم ، بأصابعهم او بقضبان صغيرة ... والى جانب الجرحى ،
في زاوية من الأسطبل ، تكومت اكداس من الجثث لأن كثرة
الموتى ما كانت لتدع مجالاً لدفنهم حالاً .

اشار الطبيب الى ذلك المشهد قائلاً :

— ألا ترى ؟ كيف استطيع مساعدتك ؟ ليس لدي ضماد او اي
شيء آخر . اتوسل اليك ان تذهب عني . اتزع رباطك وداور
جراحك بالرماد ... ان الى جانب الباب رماداً جديداً .

وضعت الرماد على جراحي وعدت الى المعسكر ، فاستقبلني
الحارس بابتسامة عريضة وابتدري بقوله :

— ماذا رأيت ؟ ان لدى جنودك طبيباً ممتازاً ! هل اعطاك
العلاج اللازم ؟ فأردت ان أمر دون أن اجيب ، لكنه صفني
بقبضة يده وهو ينجح بوجهي :

— ألا تريد ان تجيبي ايها الحيوان ؟

فوقعت ، وانهاى على رأسي وصدري ضرباً بقدمه ، ولم
يزل يدوسني حتى اجهده التعب . لن انسى ذلك الالمانى ما عشت .
كلا ، لن انساه أبداً . لقد ضربني بعد ذلك مائة مرة ... كان
كلما رأي من خلال الأسلاك الشائكة بأمرني بالخروج ويضربني في
صمت !

أتسألونني كيف بقيت على قيد الحياة ؟

قبل ان اغدو غاملاً ميكانيكياً ، اشتغلت مرة بنقل اكياس
الملح ، فكنت احمل على ظهري كيسين معاً ، وكان
كل كيس وزن قنطاراً . اجل ، لم تكن تنقصني القوة ، فأني اتمتع

يجسم متين التركيب . لكنني لم اكن اريد ان اموت ، على
الاخص ... كانت الرغبة في المقاومة عظيمة في نفسي : كان يجب
عليّ ان اعود الى صفوف المدافعين عن الوطن . ولقد عدت كي
انتقم من اعدائي حتى النفس الاخير .

لم يلبث الجلادون ان نقلوني الى معسكر آخر يبعد عن
المعسكر السابق مائة كيلومتر ، لكن طريقة الحياة فيها كانت
واحدة ، الا ما كان من اطعامنا هنا جيف الجياد ، فكنا نأكلها
واغبين لنخفف من وطأة الجوع ...

وكان البرد قد ابتدأ ، واخذ المطر يتساقط طوال الليل ، وفي
الصباح تهب انفاس الصقيع ، ونحن لا غرفة تضنا ولا سقف
يجبب عنا المطر والجليد . وعبثاً كنت اتقي البرد بمعطف اخذته
عن جثة جندي احمر ، فقد كان البرد يتعاضم ... اما الجوع
فقد تعودناه .

كان يقوم على حراستنا جنود انتفخت بطونهم لكثرة ما
سلبوا من اوراق الناس . وكانت اخلاقهم متشابهة كأنها صبت
في قالب واحد . كانوا يتسلون بنا ... فيدنو اقدمهم في الصباح من
الاسلاك الشائكة هاتفاً :

— توزيع الطعام من الجهة اليسرى ...

فيحشد في الجهة اليسرى من المعسكر كل من يستطيع
النهوض منا . وننتظر هناك ، ويطول بنا الانتظار بضع ساعات ...
مئات من المياكل العظمية الحية المرتعدة كانت تتعامل على
نفسها وتنتظر حابرة تحت عصف الريح .

وفجأة يقترب نفر من الالمان ويلقون البنا عظام حصان ميت ، فتتنفس في الوحل ، وينقض عليها الجائعون . والالمان يتضحكون ملء افواههم ، ثم يسددون البنا الرشاشات ويطلقون النار ، فينتعالي الصراخ والالانين ، ويهرع الاسرى الى الجهة الثانية من المعسكر مخلفين وراءهم كومة من القتلى والجرحى . وحيثئذ يدنو من الاسلاك الشائكة ملازم الماني ويصرخ بنا وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الضحك :

- لقد اضرب النظام في اثناء توزيع الطعام ... هيا احملاوا جثث الموتى .

ويقفقه الجنود الالمان المتجمعون وراء رئيس المعسكر لشدة اعجابهم بنادرة صاحبهم ، بينما نحمل نحن أمواتنا في صمت وندفنهم في واد قريب .

ولقد كانوا يضربوننا بأيديهم وعصيهم واعقاب بنادقهم ، دونما سبب لمجرد التسلية ، وكانت جراحي قد التألمت ففتفتحت في هذا لمعسكر من جديد لما تعرضت له من برد وضرب . لكنني كنت اريد ان احيا ، ولم افقد أملني بالخلاص !

كنا ننام في الوحل ، بعضنا متراص فوق بعض ، متقلبين في سكون الليل ، متعرضين لرياح مثلبة ... فلم يكن النوم راحة لنا بل عذاباً رهيباً .

وتعاقبت الايام على هذا الفرار كأنها كوابيس ثقيلة . وهزلت حتى اصبحت في طاقة ولد صغير أن يصرعني . فكنت انظر مرتاعاً الى ذراعي اليابستين اللتين لا يكسوهما سوى الجلد والعظم ،

واتساءل : « كيف أستطيع الذهاب من هنا بعد الآن ؟ » ، وانها
على نفسي بالسبب لأنني لم احاول الهرب منذ اليوم الاول . فلو
قتلت حين ذاك ، لما قاسيت ، على الاقل ، هذا العذاب !
ولما حل الشتاء كنا قد اصبحنا اقل عدداً ... فانبأونا يوماً انهم
سيقودوننا قريباً الى العمل . فدبت الحياة فينا ، وشعر كل منا
بانه قد استيقظ في نفسه امل بالهرب او شعاع ضئيل من الامل .

و ذات ليلة حلوة لكنها قارصة البرد ، تناهى الى اسماعنا قبيل
الصبح ، دوي مدافع تزار باستمرار ، فتعرك الاسرى من حولي ،
وصرخ احدهم :

— ايها الرفاق ، ان جيشنا يهاجم

نلك هنية لا توصف ... لقد انتصب الاسرى كلهم كأنهم قد
تلقوا امراً بالوقوف ... نهض حتى اولئك الذين لم يتحركوا من
امكنتهم منذ أيام طوال . وسمعت حولي تمتمة حارة ونحيباً مخنوقاً .
كان ثمة من يبكي الى جانبي منتحباً كأمرأة . وانا ايضاً ... وانا
ايضاً ...

قال غيواسيموف ذلك باستعجال ، وبصوت متقطع ، ولبث
صامتاً بضع ثوان استعاد فيها رباطة جأشه ، واستطرد بصوت
اكثر هدوءاً واقل انفعالاً :

— وانا ايضاً شعرت بالدموع تنحدر على خدي فتجمدها الريح .
وبدأ احدها ينشد الانترناسيونال بصوت ضعيف ، فرافقه اصواتنا
الباردة المرتجفة . واذا بالالمان يصبون علينا نيران رشاشاتهم ،

وسمعنا صوتاً من بيننا يأمرنا :

— استلقوا على الارض !

فاستلقيت ، واخذت اغرز جسي في الثلج ، وانا ابكي كالطفل . ولم يكن الفرح وحده مبعث تلك الدموع ، بل كانت ايضاً دموع الفخر بشعبنا . فقد يستطيع الالمان ان يقتلونا ، ونحن الذين نزعنا اسلحتنا ونزفت دماؤنا واجهدنا السهر والجوع ، وقد يستطيعون ان يرهقونا بالوان العذاب ، لكنهم لا يستطيعون تحطيم ارادتنا ولن يحطموها ابداً .

لم استطع ، تلك الليلة ، ان اسمع نهاية قصة الملازم غيراسيموف . فقد استدعي على عجل الى مقر القيادة في وحدته . لكنني التقيته بعد ايام في الغابة ، وكانت رائحة الجثث غوج فيها مع رائحة الصمغ ، والملازم جالس على مقعد ، وقد انحنى ظهره ، وانعدت يداه على ركبتيه . فخطر لي وانا انظر اليه انه قد تعود ، هناك ، في معسكر الاعتقال ، ان يلبث هكذا ، وايضاً ، معقود اليدين ، صامتاً ابداً ، غارقاً في تأملات شاقة عميقة ...

— أتسألني كيف استطعت الهرب ؟ بعد ان سمعنا زئير مدافعنا تلك الليلة ، وكان من امرنا ما عرفت ، ارسلنا للعمل في بناء المتاريس . وكان الجليد قد عقب البرد ، والمطر لم ينقطع . فساقونا الى الشمال ، ونجددت المآسي السابقة : الرجال المنهوكون يسقطون فيقتلون وتترك جثثهم على قارعة الطريق ...

وفيما كنا نجتاز حقلاً من البطاطا ، قتل الضابط الالماني ضابطاً

اوكرانياً لانه التقط وهو يسير قطعة منها . لا ادري كيف حدثت الضابط غونتشار نفسه بالتقاط تلك القطعة الملعونة من البطاطا . فقد رآه الضابط الالماني ، فاقرب منه وافرغ رصاص مسدسه في رأسه دون ان ينبس احدهما بكلمة . ثم اوقفنا الضابط وقال لنا ملوحاً بيده ، مشيراً اشارة عريضة :

— ان هذا كله ملك الدولة الالمانية ، ولسوف يعاقب بالقتل كل من تسول له نفسه ان يمد اليه يداً .

ومررنا باحدى القرى ، فاحتشد الاطفال والنساء على جانبي الطريق ، وشرعوا يلقيون الينا خبزاً وبطاطا ، لكن القتل كان نصيب الاسرى القلائل الذين حاولوا التقاط ذلك الطعام . فلم يكن من اولئك الاطفال والنساء الا ان سبقونا الوفا من الامتار ووضعوا كسر الخبز وقطع البطاطا في طريقنا . فلما مررنا بها ، استطعنا التقاطها دون ان نشير انتباه الحفراء . وقد اصابني قطعة بطاطا تقاسمتها وجاري ، فشعرت بانني لم اذق في حياتي أطيب منها .

وبلغنا اخيراً مكان العمل ، وهو غابة يراد انشاء المتاريس فيها . فضاعف الالمان رقابتهم علينا ، واعطوا كلاً منا مجرفة ، لكن من ذا الذي يستطيع ان يبني لعدوه متراًساً يتحصن فيه ! في اصيل ذلك النهار اتخذت قرارى . خرجت من النفق الذي كنا نحفره ، ودنوت من الحارس ومجرفتي في يدي ... وقد لاحظت ان الالمان الآخرين كانوا بعيدين ، وان هذا الرجل هو الوحيد الذي يقوم على حراستنا ، فتمت امام الحارس :

— لقد انكسرت مجرعتي ... انظر اليها بنفسك !

وفكرت ، لحظة واحدة ، بانه سيقضي عليّ ان لم استطع صرعه بضربة واحدة . ولا ريب في ان الالماني قرأ تعبيراً مخفياً في وجهي ، اذ بدرت منه حركة لرفع سير البندقية الرشاشة عن كتفه . ولم يكن بوسعي ان اضربه على رأسه وفوقه قبعة حديدية ، فعاجلته بضربة من المجرفة على وجهه ، وما خانتني قوتي ، فسقط على الارض دون ان يرسل صرخة واحدة .

ها انا ذا أملك بندقية رشاشة وكمية لا بأس بها من الرصاص ! عدوت ، لكنني ما لبثت ان شعرت بأنني لن استطيع العدو . فوقفت ، وتنفست ملء رئتي ، وعدت الى الجري بسرعة اقل . كانت الغابة وراء الوادي متكاثفة جداً ، وكنت اريد بلوغ ذلك المكان ... لا استطيع ان اذكر الآن كم مرة وقعت ونهضت لأقع من جديد ... الا اني كنت ابتعد مع ذلك ، اكثر فأكثر . ولما انسللت بين الادغال المتشابكة مجهداً ، خائر القوى ، سمعت ورأى اصواتاً تتعالى من بعيد ، وطلقات البنادق الرشاشة تترى ، لكنه كان قد اصبح من العسير عليهم ان يعثروا عليّ .

كان الغسق يقترب ، فقلت : اذا استطاع الالماني ان يقتفوا أثري ومجدقوا بي ، فلن أدع لنفسي سوى الرصاصة الاخيرة . وشجعني هذا الحاطر ، فواصلت السير مخففاً سرعتي ، مضاعفاً انتباهي وحذري . قضيت الليل في الغابة ، وكان ثمة قرية لا تبعد سوى نصف كيلومتر ، لكنني خشيت ان اغامر بالذهاب اليها مخافة ان التقى فيها الالماني .

وفي اليوم التالي ، اهديت الى نفر من الانصار فقيت بصحبهم خمسة عشر يوماً استعدت فيها قواي . وقد عاملوني في البدء بشيء من الشك رغم البطاقة الحزبية التي اخرجتها من بطانة معظفي حيث وضعها وانا في المعسكر . ثم تبدل موقفهم مني حين شرعت اشاركهم في نضالهم الأعداء . وفي تلك الايام طفقت ، للمرة الاولى ، اعدّ الالمان الذين أقتلهم ، وانا حريص منذ ذلك الحين على هذا الحساب ، والرم يزدد يوماً بعد آخر ويقترب سريعاً من المائة . وفي كانون الثاني ساعدني الانصار على اجتياز خط الجبهة ، فقضيت في المستشفى شهراً اخرج الطبيب خلاله من كتفي شظية اللغم التي أصابني يوم أسرت . اما الروماتيزم والامراض الاخرى التي اعترني في المعسكر ، فسأعني بمعالجتها بعد انتهاء الحرب . ولما غادرت المستشفى ارسلت الى منزلي ، فقضيت مع اسرتي اسبوعاً واحداً . ولم استطع البقاء هناك اكثر من ذلك ، فان مكاني هنا ~~في~~ في الجبهة ، حتى النهاية !»

لما نهض الملازم غيراسيموف لتوديعي ، قال لي وهو يتأمل اشعة الشمس في منعطف من الغابة :

— لقد تعلمنا ان نحارب . تعلمنا ان نبغض ونحب حقاً . ألا ان الحرب لمصر يرهف جميع العواطف . بحسب بعض الناس ان الحب والبغض ضدان لا يجتمعان . وقد قال الشاعر : « لا يقرن معاً جواد ووعل » . ولكن ها هما قرنا عندنا جنباً لجنب ، وها هما يجران العرب على احسن وجه . اني لأحقد على الالمان الفاشيست

من اجل ما صنعوه بوطني وبشخصي . واني لأحب شعبي بكل
جوارحي ولا اريد ان يعاني نير الاثان . ذلك هو حافزنا الى
القتال بالضراوة التي نحارب بها ... ان هاتين العاطفتين ، المتجسدتين
في العمل ، هما اللتان تقوداننا الى النصر . ان حب الوطن يعيش
في قلوبنا وسيعيش فيها ما دامت تنبض . أما الحقد فأننا نحمله
على رؤوس حرابنا . اعذرنى اذا عبرت عن هذا المعنى بطريقة
معقدة ، فذلك هي فكرتي .

ولأول مرة منذ تعارفنا ، ابتسم الملازم غيراسيموف ابتسامة
بسيطة ساحرة : ابتسامة طفل . ولأول مرة ايضاً ، لاحظت ان
هذا الملازم الذي ما يزال في حدود الثانية والثلاثين من عمره ،
قد اضته الآلام ولوحت شعره بالمشيب ، لكنه لم يزل قوياً
برغمها ، ومتيناً ، كشجرة سنديان .

الغراب

للكاتب الاسباني غابرييل ميرو

كانت ابواب المدرسة ونوافذها مفتحة على مصارعها ، فان
فصل الصيف قد بدأ ، والفرصة الشبه قد اقتربت . وكان الاطفال
يشاهدون ، من مقاعدهم ، جلال المساء المضيء الصامت ينتشر على
الحقول الناضجة ، والسما تهبط صافية ساجية .
وحول المدرسة القائمة بين اسوار القلاع القديمة في ضاحية
القرية ، كانت تروى بضع عنزات من القطعان العائدة من المرعى .
وتم حطابون قادمون من السهل محنية ظهورهم تحت حزم خضراء ،
يمتزج عطرها باطياب المساء ، في ذلك المرتقى المنير الرحب .
وقد الهى التلامذة واثار بينهم ضجة مخنوقة ، دخول خفاش طائش
الى الغرفة ، وطين نحلة نشيطة ، وفراشتان مرّتا خفيفتين مسرعتين
على خارطة اسبانيا والبرتغال . اما معلم المدرسة فما كان يشعر
بأي ضجر او ملل .

لقد ولت ساعة الأنصراف منذ وقت غير قصير . ولكن يبدو
ان المعلم لم ينتبه الى ذلك ، او نسيه تماماً ، فهو يتحدث
ويتحدث دون انقطاع ، والاطفال لا يعيرونه انتباههم ، وانما
تذهب افكارهم الى الاحجار التي سيلقونها بعد قليل على اعشاش
العصافير ، او يتساءلون اتي مزاراب من مزاريب الكنيسة
سيقتلعون .

كان المعلم يلقي على تلاميذه توبيخه اليومي ، زارعاً في قلوبهم بذور التقى والصلاح :

ولماذا تسرقون اعشاش الطيور ؟ لو كنتم تصنعون ذلك مساعدةً لصغار الطيور ، لاعتقادكم انها بحاجة الى ملجأ اكثر راحة ودفئاً من الاعشاش التي تبنيها بين اغصان تلعب بها الريح ، فقد يفقر لكم بعض الشيء . كن هادئاً يا توريفيروزا ... لكنكم تصنعون خلاف ذلك ... انكم تمسكون بالطائر المسكين ، ثم تربطون رجله بخيط ، وتجرونه في الهواء ! أليس كذلك ؟ .. واخيراً شرع الاطفال يحركون اقدامهم على ارض الغرفة ، ويسعلون ، ويضربون المناضد بقبضاتهم . ولبشوا على ذلك حتى اذن لهم بالانصراف ، فخرجوا في ضجة صاخبة . ووقف هو في عتبة الغرفة ، يراقبهم وهم يتخطون الانقاض وينتشرون بين البساتين ، وشاهدوا ينسلقون احدى الاشجار ثم يتركونها وينطلقون راكضين ملتفتين بانظارهم نحو المدرسة ، فتمتم :

— يا الهي ، لقد سرقوا عشاً آخر !

جالت عينا المعلم الحزینتان بوهة في المناظر المحيطة به التي كانت تنطفئ رويداً رويداً . ثم دخل فاشعل المصباح ، وبدأ يكتب ، هوّماً متناعساً ، في بحته عن العروض .

ولم يطل عمله كثيراً ، فقد ارتفع بين المنافذ ، بعد قليل من الوقت ، صوت قفزات شديدة وخفقات اجنحة ، فنفدت عيناه بوله بين طيات العتمة الكثيفة ، وقال ضاحكاً :

— تعال ، ايها الصغير المسكين ، تعال .

واخرج من جيبه حفنة من القمح فنثرها على الطاولة :
 - تعال يا ولدي ارثور ، تعال ... لقد ذهبوا جميعاً .
 فهبط الى الارض طير كبير مبدوط الجناحين ، ثم وثب
 مزهواً مدلاً ، فاذا على يد المعلم المعروفة غراب .

في الصبيحة الساكنة الحارة الزرقاء ، من نهار الخميس المقدس ،
 في طراوة نيسان المعطار ، نزل المعلم من رابية القرية نحو البرية
 الرحبة العميقة ، والطبيعة ترفل في حلة من الجمال والصفاء ، والطبيعة لا
 عهد له بها من قبل . وقد هدأ كل شيء ، فلا صوت هناك يسمع ،
 ولا غصن يهتز ، سوى رؤوس الحور العالية تتأيل بكبرياء .
 اجتاز المعلم ساقية متفرعة عن غدير هناك ، ونفذ الى الحقل
 حيث ترعى الماشية بملء حريرتها ، بينما الرعيان الشبان يتحادثون
 منبطحين على الارض ، وقد وضعوا على مقربة منهم طعامهم مع
 ادوات العمل التي ينسجون بها معاطفهم وأخراجهم . فحيام برقة
 وقال لهم ببساطة شيخ وديع القلب :

- ألم تعفوا من العمل في هذا اليوم أيضاً ؟ ألم يؤذن لكم
 حتى بقليل من الوقت تؤدون فيه واجباتكم الدينية ؟
 - كلا ياسيد ، ان علينا ، نحن ، واجباً في كل حين ...
 ونظر ، فاذا بأحدهم يقذف المعزى بالحجارة حانقاً ، ليعيدها الى
 المكان المناسب ، فقال :

- الا تملكون رأساً واحدة من هذه المعزى ؟
 - كلا ، ان هذه المعزى كلها لشخص واحد من القرية .

ومرت في تلك الاثناء ، في الافق الازرق ، ثلاثة غربان ،
وجعلت تحوم في شبه دائرة فوق المرعى ، فبدأ مشهد الطبيعة يربو
اكثر من قبل ، وكأن السلام الذي يسودها أصبح اكثر عمقاً
واكثر صفاء . وقال أحد الرعاة اذ بصر بها :

- ليس من حيوان اكثر خبثاً من الغراب .

- لكل حيوان خبثه وطيبته أيضاً . وفي هذا اليوم يجب ان
نرى كل شيء مقدساً .

ورفع أنظاره الى السماء ، بينما صرخ الشاب بعنف :

- ولكن هذه الطيور تهبط على الاراضي المبدورة . انها
تعيش بما تسرقه !

كانت الغربان السوداء قد تباعدت ، وبدأت تهبط ببطء . فهرع
اثنان من الرعاة وتغلغلا في الدغل الكثيف . ثم شقت الفضاء
حجرة ، وتراكض الرجال وفي أيديهم عصيهم ، فطار اثنان من
الغربان الثلاثة ، وارتفعت في الجو صرخة ألم ، وهتف صوت
قوي نشيط :

- لقد أوقعت واحداً من هذه اللصوص ، ولكن اللعين ما
يزال حياً .

وعقبه صوت آخر يقول :

- دعه لي ... لأجهز عليه انا .

وتراكضوا جميعاً .

كان جناحا الطائر محطمين ، وقد انكسر احد مخليه ، وانفوس
ريشه يمزيج من الوحل والدم والعشب . فاستنكر المعلم الاجهاز

عليه ، ورجاهم ان يهبوه اياه ليعالجه ويحتفظ به ، وعاد الى المدرسة بالغراب المدمى ، وهو يتحدث اليه كما يتحدث المرء الى صديق مريض ، ضاماً اياه الى صدره ليستشعر الحذب والدفء .

هكذا محض الغراب معلم المدرسة صداقته المخلصة ، وأصبح رفيقاً له في الوحدة التي كان يعيش فيها منذ فقد زوجه وأصبح ابنه الوحيد كاهن قرية بعيدة متواضعة . وقد شفي الطائر ، لكنه ظل مريض الجناح ، محطم الخلب ، مشوهاً ، لا يستطيع التحليق ، ولا يسعه ان يطير من سرير المعلم الى طاولته الا بمجد كبير . وكان الغراب في أول الأمر يخرج الى الساحة فيلعب مع الاطفال . وقد رضي المعلم عن هذه الصعبة التي نشأت بين غرابه وتلامذته ، بل كانت من صميم طريقته الخاصة في التربية . ففي اعتقاده ان محبة الحيوان ومعاملته بأشفاق تروضان الطفل على كبح شرسته . ولكن الاطفال ما لبثوا حتى شرعوا ينالون الطائر بالأذى ، فبدأ يبغضهم ، وصار اذا ما سمع جلبتهم ، يتسلل الى غرفة المعلم ، ويهبط من نافذتها الى الحرائب القائمة على قمة الهضبة ، ويبقي هناك حتى يأزف موعد الانصراف .

ولقد تردد المعلم كثيراً قبل ان يطلق على صديقه اسماً يدعو به . وبينما كان جالساً على عتبة منزله ، في يوم أحد من أيام الشتاء ، يتدفأ بأشعة الشمس ، والطائر يتنقل على ركبتيه ، تذكر الشيخ التقي اسطورة قديمة ، وأصبح للغراب الكسبح اسماً .

لقد هتف معلم المدرسة باعتزاز :

— سيدى ارثور تينناً بغراب آخر مقدس من العهود القديمة .

وقف الأولاد بصرخون جذلين أمام الباب المغلق :

— لا مدرسة هذا اليوم ... لا مدرسة هذا اليوم !

ذلك ان ابن المعلم قد عاد ، بعد غياب طال عدة سنوات .
وقد ذهب الاب السعيد باكراً لانتظاره . ولما وصل ... لما استعاد
الاب ابنه ... لم يشبع من النظر اليه . ولشد ما كانت الابن في
الواقع جسيماً وجميلاً .

كان الكاهن الشاب طويلًا ، بدينًا ، قليل السمرة ، عريض
الفكين ، ذا عينين مشتعلتين وشعر كثيف حالك .

— وانت ايضاً صحتك جيدة يا ابي ، وان كنت قد استرخيت
قليلاً . ولكني سأعيد اليك في هذا الفصل نشاطك السابق ، ببضع
نزعات والالعاب رياضية ... والصيد ؟ ألا تذهب الى الصيد يا ابتاه ؟
لم يسمع المعلم سؤال ابنه ، لانها كانوا قد بلغا المدرسة ، فتركه
وذهب يبحث المعجوز التي نهي الطعام على الاسراع .

وبعد ان اكلا ، دخل الابن الى غرفته ليفتح حقيبته ويستريح
قليلاً من عناء السفر ، ومضى الاب الى القرية ليعود بالاطفال
الذين حسبوا ان العيد سيستمر طوال النهار .

ولما عاد المعلم مع بضعة أطفال ، لم يجد ابنه في المنزل ، فبدأ
يلقي درسه على تلامذته ، رغم همهم وضواهم ، ثم سم القراءة ،
فطفق بمحدثهم عن فائدة الفضيلة والشفقة :

— رأيتمكم امس تنتزعون ريش طير كان بين ايديكم . تصوروا
ماذا تعانيون لو ان احداً خنقكم ...

ارتفع صوت قاعم يقول :

— سيدي ، لما رأيتنا ذلك المساء اتهموني انا ، مع اني لست المذنب ، بل هو توريفروزا .

فصرخ غلام آخر :

— هذا كذب . انه هو المذنب .

فاعترض الاول قائلاً :

— كيف تقول انه كذب ؟

ثم أنذره بصوت خافت انه سيجازيه بعد الانصراف من المدرسة .

وقال المعلم آمراً ، بصوت متعب ، وهو يضرب الطاولة بيده

ضربة خفيفة :

— كفى ... كفى ... اصمتوا جميعاً .

ولما صمتوا ، ارتفع في الخارج ، في سكون القبة ، طلق ناري .

فتنم المعلم :

— وهذه جريمة جديدة من جرائم الانسان !

ثم واصل خطابه . ولكن الغلام تابع دفاعه عن نفسه بحجارة :

— أوكد لك يا سيدي ، انه توريفروزا . ودليل ذلك انه لما

ذهبت أمسك بالعصفور ووضعه في فم كانيلو ولم يتركه حتى ابتلعه

الكلب حياً .

فتنم الشيخ بألم :

— يا للهول ... يا أماء !

وفجأة ملأت الباب قامة سوداء ، ودخل الكاهن الشاب .

فندت عن الاب صرخة تقعها الدهشة والاستغراب :

— انت ... تحمل بندقية صيد !

— وهل تعلم ماذا حدث ؟ لقد انققت ساعات طويلة لم استطع

ان اقتل فيها سوى هذا الطير الحقير !

والقى الشاب على الارض بازدرء غراباً ميتاً . فصاح المعلم :

— ارثور ... ولدي ارثور !

واجهدش في البكاء .

الجدار

للكتاب الفرنسي جان بول سارتر

دفعوا بنا الى حجرة كبيرة بيضاء ، فأغمضت عيني هنيهة لان النور قد آلمها ، ثم رأيت طاولة يجلس وراءها اربعة رجال مدنيين ينظرون في بعض الاوراق . وحشدنا جميعاً في زاوية الغرفة بانتظار مثولنا امام هؤلاء الرجال . وكان السجينات الواقفان امامي اشقرين مدورتي الرأس يشبه احدهما الآخر ، ويخبل الى انها فرنسيان . وكانت اصغرهما فتى عصياً ما يفتأ يرفع سرواله كأنه يوشك على السقوط .

ودام انتظاري قرابة ثلاث ساعات ، فاحسست فراغاً في رأسي . الا ان الغرفة كانت دافئة ، فوجدت في ذلك بعض المتعة ، بعد ان انقضت علينا اربع وعشرون ساعة ونحن نرتجف من البرد .

كان الحراس يقودون المعتقلين واحداً بعد آخر الى امام الطاولة ، فيستجوبهم الرجال الاربعة . ولم يتعد هذا الاستجواب في اكثر الاحيان سؤا لهم عن اسمائهم ومنهم ، وقد يبدو لاحد المحققين ان يسأل : « هل اشتركت في تخريب الذخائر ؟ » او : « ابن كنت في صباح اليوم التاسع من الشهر ؟ وماذا كنت تصنع ؟ » لكنه لم يكن ليصغي هو وزملاؤه الى الجواب ، او لم يكن يبدو عليهم ذلك . كانوا يصمتون بزهة ، ثم ينظرون امامهم ، ثم يكتبون على اوراقهم . وقد سألوا توم هل كان يخدم حقاً

في الفرقة الاممية . ولم يكن في وسعه ان ينكر بسبب
الاوراق التي وجدت في جيبه . اما جوان فلم يسأله شيئاً ،
لكنهم لما سمعوا اسمه عكفوا على الكتابة وقتاً طويلاً ، فقال :
- ان اخي جوز هو المناضل ، وانتم تعلمون انه قد مات .

اما انا فلست انتسب الى حزب ما ، ولم اعن بالسياسة يوماً .
ولما لم يجيبوا ، استطرد قائلاً :

- انني لم اصنع شيئاً ، وليس من الحق ان تدبنوني بجرم غيري .
فأسكته احد الحراس واقتاده .

وجاء بعده دوري ، فسألني احد الأربعة :

- هل انت بابلو ابييتا ؟

فأجبت بالإيجاب . فنظر في اوراقه وقال :

- اين رامون غريس ؟

- لا أعلم .

- لقد اخفيته في منزلك من اليوم السادس الى اليوم التاسع

من هذا الشهر .

- كلا !

فعكف المحققون على الكتابة ، وخرجني الحراس . وكان نوم
وجوان ينتظران في الرواق بين حارسين ، فسأل نوم احدهما :

- هل هذا استجواب أم محاكمة ؟

فأجاب الحارس : بل محاكمة !

قال نوم : فما تراه يصنعون بنا ؟

فأجاب الحارس بخشونة : ستبذلغون نص القرار في غرفتكم .

وكانت غرفتنا أحد أقيية المستشفى ، وهو مكان رطب شديد الرطوبة . فلما أعدنا اليه التزم جوان الصمت ، وبدأ عليه الخوف ، وقد كان في الواقع أصغر سناً من أن يستطيع قول كلمة . أما توم فكان محدثاً ماهراً يجيد اللغة الأسبانية . وكانت ثمة مقعد وحصير ، فجلسنا ننتظر في صمت . ثم قال توم :
- لقد قضي علينا .

فقلت : ذلك هو اعتقادي ايضاً ، لكنني اظن انهم لن يصنعوا بهذا الصغير شراً .
قال توم : ليس هناك ما يأخذونه عليه . انه شقيق أحد المناضلين الجمهوريين . هذا كل ما هنالك .
نظرت الى جوان فبدأ لي كأنه لا يصغي لما نقول . واستطرد توم :

- هل تعلم ماذا صنعوا في سرقسطة ؟ لقد مددوا الناس على الطريق ومرت سياراتهم الشاحنة فوقهم . ان احد المراكشين الهاربين من صفوفهم قد اخبرنا بهذا . وهم يصنعون ذلك توفيراً للذخائر كما يقولون .

- لكن هذه الطريقة لن توفر لهم النفط على كل حال .
قلت هذا وانا حائق على توم لأنه يتحدث بهذه الأمور امام جوان .

وكان ضوء النهار يتسلل الى القبو من اربع كوات صغيرة ، ومن ثغرة مدورة في السقف تبدو منها السماء كان اصحاب المستشفى يفرغون منها في القبو الفحيم المعد لتدفئة المرضى ثم

يغلقونها بباب خشبي صغير . فلما انفجرت الحرب الاهلية ، اجلي المرضى عن المستشفى وبقي الفحيم في القبو ، لا يستفاد منه ، وماء المطر يتسرب اليه من الثغرة التي نسي الموكثون بها اغلاقها .

صرخ توم فجأة :

— يا لعنة السماء ... ها انا ارتجف من جديد .
ونهض فشرع يقوم ببعض الالعاب الرياضية ، وقميصه ينفرج مع كل حركة عن صدره الابيض الاشقر . ثم استلقى على ظهره واخذ يحرك ساقيه في الهواء ، فرأيت ردفيه يهتزان . لقد كان كثير الشحم . وقد خطر لي ، وانا اراقبه ، ان يضع رصاصات ستخترق بعد حين وجيز هذا اللحم الطري وكأنها تخترق قالباً من الزبدة . وما كان مثل هذا الحاطر ليهيجس في ذهني لو كانت توم ضعيفاً .

لم اكن لأشعر بالبرد ، لكنني لم اكن لأحس وجود ذراعي او ساق . وكانت يخيل الي من حين الى آخر ان شيئاً ما ينقصني ، فأبحث عن سترتي فيها حولي ثم اذكر انهم قد استبقوها لديهم . ولما نهض توم عن الارض سألته :

— هل شعرت بالدفء ؟

— كلا ، اني الهت من تعبي فحسب .

وحوالى الساعة الثامنة مساء ، دخل القبو جندي برتبة عريف يرافقه اثنان من الكتائب ، وهو ممسك بيده قطعة من الورق ، فسأل الحارس :

— ما هي أسماء هؤلاء الثلاثة ؟

— ستينبوك وايبينا وميربال .

فوضع العريف نظارتيه وحدق في الورقة التي بيده وهو يقول :

— ستينبوك ... ستينبوك ... ها هو ... لقد حكم عليك

بالموت ... وستعدم في صباح غد . واعاد النظر في ورقته ثم قال :

— والاثنتان الآخران ايضاً .

فقال جوان : هذا غير ممكن ... ليس من الممكن ان يحكم

عليّ بالاعدام !

فرمقه العريف دهشاً ثم سأله :

— ما اسمك ؟

— جوان ميربال .

— كيف تقول اذن ان هذا غير ممكن ؟ ان اسمك مدون

في الورقة . لقد حكم عليك بالاعدام !

— ولكنني لم اصنع شيئاً !

هز العريف كتفيه واتجه نحوي ونحو نوم قائلاً :

— هل انتم من الباسك ؟

فأجبناه بالنفي ، فاستطرد :

— قيل لي ان هناك ثلاثة معتقلين من الباسك ، ولكنني لن

اضيع وقتي في البحث عنهم . من المؤكد انكم لا تريدون كاهنا !

ولما لم نجب ، قال :

— سيأتي طبيب بلجيكي لزيارتكم وقضاء الليل معكم .

ثم حيا نحية عسكرية وخرج .

قال نوم : ألم أقل لك ؟

- بلى ، ولكن هذا ظلم بحق الفتى !

قلت ذلك مدفوعاً بفكرة العدل ، وان كنت لا احب الفتى ... فقد كان ذا وجه صغير جداً ، وقد شوه الخوف والألم جميع قسماته . ولم يكن هناك من خير في ان اخسه بقليل من الشفقة ، سوى ان الشفقة كانت تثير في نفسي القرف ، بل الرعب . ولما سمع جوان جواب العريف لم يقل شيئاً وانما اصبح رمادياً : اصبح وجهه ويده بلون الرماد ، وجلس يحدق في الارض بعينين مدورتين . وكان نوم طيب القلب ، فأمسك بذراعه ، ولكن الفتى تخلص منه بعنف مكشراً عن اسنانه . فقلت له هامساً :

- دعه ، ألا ترى انه غاضب !

فأطاع نوم آسفاً ، اذ كان يؤثر ان يعزي هذا الصغير ، وكان من شأن هذه التعزية ان تشغله هو نفسه فلا يفكر في الموت . أما الآن فما هو قد تفرغ لهذه الفكرة ، اذ ليس هنالك شيء آخر يعمله أو يفكر فيه .

فتح الباب ودخل حارسان يتبعهما رجل أشقر يرتدي ثياباً عسكرية بلجيكية حياناً وقال :

- انني طيب ، ولدي اذن برؤية السجناء في الاوقات العسية .

وكان صوته حسن الوقع ، مثيراً للانتباه ، فقلت :

- ماذا أتيت تصنع هنا ؟

- اني أضع نفسي تحت تصرفكم . سأصنع كل ما بوسعي لأخفف

وطأة هذه الساعات عليكم .

— لماذا أتيت عندنا دون غيرنا ؟ هناك اشخاص آخرون .
المستشفى مكتظ بأمثالنا !
— لقد ارسلوني الى هنا .

قال ذلك بلهجة مبهمه . وحدثت في عينيه فرأيتـه يضطرب قليلاً ، فقلت :

— انك لم تأت الى هنا بدافع الشفقة . على اني اعرفك ، فقد رأيتك مع الفاشيست في ساحة الشكنة يوم القي القبض عليّ .
وكنت اهم بمتابعة الحديث . الا اني شعرت فجأة بشيء ادهشني : ان وجود هذا الطبيب بيننا في القبر لم يبق يميني ابداً .
وكان من عادتي ان هاجت رجلاً ان لا اتحلى عن الهجوم . ومع ذلك ، فقد فارقتني الرغبة في الكلام بغتة ، فهزرت كتفي واشحت بعيني ، ثم رفعت رأسي بعد قليل فاذا به يرمقني بفضول غريب .
وكان الحارسان جالسين على الحصير ، يتلهى بيدرو ، وهو اكثرهما هزلاً ، باللعب بأصابعه ، ويجرك الثاني رأسه من حين الى آخر ليطرد عنه النوم .

هزرت كتفي ونظرت الى رفيقيّ . كان توم قد احنى رأسه بين يديه ، فلم ار سوى رقبة السينة البيضاء . اما جوان الصغير فكان غاية في الالم . وكانت فاغر الفم وانقه يرتجف ، فاقترب الطبيب منه ، ووضع يده على كتفه كأنه يريد تعزيته ، لكن عينيه كانتا باردتين . ثم رأيت يد البلجيكي تهبط ببطء على ذراع جوان حتى تبلغ قبضة يده ، والفتى يتقبل ذلك دون اكتراث . أمسك الطبيب قبضة جوان بأصابعه ، وتراجع في الوقت نفسه كي

يدبر ظهره لي . ولكنني انخبت الى الوراء قليلاً ورأيتـه يخرج
ساعته فينظر فيها هنيهة دون ان يترك قبضة الصغير .

قلت لنفسي حانقاً : يا له من خبيث ! ليحذر من ان يس
نبضي ، ولئن فعل ذلك لأرسلن قبضتي في شدقه القدر .
لم يقترب مني ، لكنني احسست انه ينظر الي . رفعت رأسي
وبادلتـه النظر ، فقال لي :

— ألا ترى ان المرء يجمد هنا ؟

وكان وجهه قد اصبح بنفسجي اللون لشدة البرد ، فأجبته :
— انني لا أشعر ببرد .

فلم يكف عن النظر اليّ بعين قاسية . وفهمت فجأة ، فرفعت
يدي الى وجهي : كنت أنضح عرقاً . كنت أنضح عرقاً في ذلك
القبو ، في اوج الشتاء ، امام تلك المجتاري من الهواء القارس .
مررت باصابعي بين شعري المبعثر ، ولاحظت في الوقت نفسه ان
قميصي كان ندياً لاصقاً بجسدي . كان العرق يسيل من جسمي
منذ ساعة وانا لا اشعر به ، لكن هذا الخنزير البلجيكي كان
شاعراً بذلك . لقد رأى قطرات العرق على خدي ، وفكر في ان
مبعث ذلك حالة نفسية استبدّ بها الخوف . وأحس انه وحده
الذي يتمتع بحالة طبيعية بينما ، وكان فخوراً بشعوره من دوننا
بالبرد . وقد أردت ان انهض فاحطم وجهه . على اني لم اك
اتحرك من موضعي حتى زال خجلي وعضبي معاً ، فتهاكت على
المقعد بغير اكتراث .

راق لي ان امسح رقبتـي بمندبلي لأنني بدأت حس العرق وهو

يتساقط قطرات فطرات من شعري الى نقرتي بشكل مزعج . ثم توقفت عن عملي اذ كانت من العبت ان اصنع ذلك ، فالعرق ينسكب باستمرار ومنديلي قد تبلل كله . وكان العرق ينضح ايضاً من ردي ، وقد التصق سروالي الرطب بالمقعد .

قال جوان فجأة : هل أنت طيب ؟

فأجاب البلجيكي : أجل !

— هل يتعذب المرء كثيراً ؟

— اوه ! متى ؟ .. كلا ، كلا . ان الأمر ينتهي بسرعة .

قال البلجيكي ذلك بلهجة أبوية .

— ولكن ... قبل لي ... ان الامر قد يحتاج الى طلقتين .

— ربما حدث ذلك أحياناً ، اذا لم تصب الطلقة الاولى

عضواً حيواً .

— وحينئذ ينبغي لهم ان يعبثوا البنادق من جديد .

وفكر قليلاً ثم قال في شيء من القنوط :

— اذن ، فالامر يستغرق وقتاً طويلاً !

كان يساوره خوف رهيب من ان يتعذب ، ولا يفكر الا في

ذلك . اما انا فلم اكن افكر في شيء من هذا ، اذ لم تكن

خشية العذاب هي التي تخفيني .

نهضت وبدأت اسير في القبو ، فارتجف توم وحدقني بنظرة

مغيظة . لقد كنت اضايقه بسيري لان حذائي كانا يرسلان صوتاً

مزعجاً كلما وطأت بهما الارض .

تساءلت وانا انظر اليه : هل اصبح وجهي ترابياً كوجهه ؟

فقد كان العرق ينضح منه ايضاً . وكانت السماء رائعة ، لكن ليس ثمة ضوء يتسلل الى هذه الزاوية المظلمة . وكنت كلما تطلعت الى السماء من الكوة المفتوحة في السقف ، ارى الدب الاكبر فوق رأسي .

بدأت اوم يتحدث بصوت خافت . وكان ينبغي له ان يتحدث دائماً كي يشعر بنفسه وبوجوده . واعتقد انه كان يوجه كلامه اليّ ، سوى انه لم يكن يتجه بانظاره نحوي . لا ريب في انه كان يخاف ان يراني بوجهي الرمادي الذي تغطيه قطرات العرق . لقد كانت كل منا يشبه الآخر وكأنه مرآة امامه ، فكان يؤثر ، فيما خيل الي ، ان ينظر الى البلجيكي ، الى الرجل الحي بينما نحن الثلاثة .

قال : هل تفهم انت ؟ انني لا افهم شيئاً !
بدأت انا ايضاً اتحدث بصوت خافت ، وانظر الى البلجيكي .
قلت :

— ماذا تعني ؟

فأجاب اوم : نحن مقبلون على شيء لا نستطيع فهمه .
وكان ثمة رائحة غريبة حوله ، وخيل اليّ اني اكثر احساساً بالرائحة من اي وقت مضى . ولما قال ذلك اجبته ضاحكاً :

— ستفهم كل شيء بعد قليل !

فقال بعناد : ليس الامر واضحاً . اريد ان اكون شجاعاً ،
ولكن يجب على الاقل ان اعرف . اسمع ... سيقودوننا الى

الساحة ... حسناً ... ثم يصطف الجنود امامنا . ترى ما هو عددهم ؟

- لا ادري ... خمسة او ثمانية على الاكثر .

- حسناً ، لنقل انهم ثمانية . سيقولون لهم « اطلقوا النار ! » فأشاهد البندقيات الثماني مصوبة نحوي ، واعتقد اني سأمتني حينذاك لو ادخل في الجدار ، فأدفعه بظهري بجميع قواي ، ولكن الجدار سيظل صامداً ، كما يحدث في الاحلام المرعبة . انني استطيع ان اتصور هذا كله . آه لو تعلم الى أي مدى استطيع ان اتصوره !
- حسناً . اني لأتصوره أنا ايضاً .

- من المؤكد ان ذلك سيحدث ألماً شديداً ، ألماً كبيراً . هل تعلم ان الفاشيست يطلقون الرصاص على العينين والفم لتشويه الانسان ؟ اني احس منذ الآن بالجراح التي ستحدثها تلك الطلقات في جسدي . منذ ساعة والالم يقدح رأسي وعنقي . انها ليست آلاماً حقيقية بل هي شر من ذلك : انها الالام التي سأشعر بها في صباح الغد . ولكن ماذا بعد ذلك ، ماذا ؟

شرع يحدث نفسه دون ان تفارق عيناه البلجيكي . ولم يكن هذا يصغي اليه . وكنت أعرف ما الذي جاء بهذا الرجل الى هنا : ان ما تفكر فيه لا يهم البتة ، لكن الذي يهمه مراقبة اجسامنا ، اجسامنا نحضر وهي ما تزال في قيد الحياة .

كان توم يقول : حقاً ان الامر ليجري وكأنه حلم مرعب او كابوس مخيف . يريد المرء ان يفكر في شيء ما ، ويعتقد بأنه قادر على ذلك ، وأنه سيفهم هذا الامر . لكن هذا الامر لا

يلبث ان يزلق، ويهرب، ويسقط في هوة سحيقة . اني لأقول
لنفسي : لن يكون بعد ذلك شيء ! سوى اني لا افهم معنى هذا
القول . هناك لحظات اقتراب فيها قليلاً... ثم يتداعى كل شيء ،
فاشرع افكر في الالوان ، في الرصاص ، في الطلقات . اني مادي ،
اقسم لك بذلك ، ولم أجن . لكن هناك شيئاً لا افهمه . اني
أرى جثتي : ليس ذلك بالامر العسير ، لكنني « انا » الذي أراها ،
واراها بعيني . ان الانسان لم يوجد كي يفكر هكذا يا ياربو .

— هل تريد ان استدعي لك كاهنا ؟

لم يجب . وكنت قد لاحظت انه بدأ يميل الى التنبؤ ، والى
مصاداتي بأسمي الصغير ، وهو يتحدث بصوت لا حياة فيه . وما
كنت أحب هذا السلوك . وفي الواقع ، اني لم اكن لأشعر بكثير
من الود نحو توم ، ولم اكن أدري لماذا ينبغي لي ان ابدل عاطفتي
نحوه ، لأننا سنموت معاً . لو قضى عليّ ان اموت مع رامون
غريس لكان الامر غير ذلك . اما الان ، فأنا اشعر بالوحدة . وانا
بين توم وجوان . ومع هذا ، فلعل الامر أفضل هكذا ، اذ لو
كنت مع رامون غريس لتعاضم تأثري وحناني . اما الآن فأنا
قاس ، واريد ان ابقى قاسياً الى النهاية .

اخذ يخضع الكلمات بضرب من التسلية . لا ريب في انه كان
يتحدث كي لا يفكر . ومن المؤكد اني كنت من رأيه ، وكان
بإستطاعتي ان اقول كل ما قاله ، اذ ليس من « الطبيعي » ان
نموت . ومنذ شعرت بأني مقبل على الموت ، لم يبق ثمة شيء
طبيعي في نظري ، لا هذه الكومة من الرماد ، ولا المقعد ، ولا

شددق بيدرو القذو . لم يكن يروق لي ان افكر في عين الاشياء
التي يفكر فيها نوم . وكنت اعرف جيداً اننا كنا ، طوال تلك
الليلة وسنبقى الى نهايتها ، نفكر في الاشياء نفسها ، وفي وقت
واحد ، كما نعرف او نتخف في آن واحد . نظرت اليه ملياً ، فبدأ
لي ، لأول مرة ، غريباً : انه يحمل موته على وجهه ! لقد جرحته
في كبريائي : منذ اربع وعشرين ساعة ، وانا اعيش الى جانب نوم
واصفي اليه . كنا نتحدث من قبل ، وانا واثق من أنه ليس
هناك من شيء مشترك بيننا ، وها اني ارى الآن اننا نتشابه
كأخوين توأمين ، لا لشيء الا لأننا سنموت معاً .

أمسك نوم بيدي وقال دون ان ينظر اليّ :

— بابلو ... اني اسأل نفسي ... اني اسأل نفسي هل يقى
الانسان حقاً !

طفق البلجيكي بدون بعض الملاحظات ، فانشأنا ننظر اليه ،
واخذ جوان ينظر اليه معنا . كنا نتطلع اليه جميعاً لانه حي :
كانت له حركات رجل حي ومشغل رجل حي ، وهو يرتجف في
القبو كما يرتجف الاحياء وليس مثلنا نحن . كان له جسم يطبعه ،
اما نحن فلم نبق نحن اجسامنا . وكان جالساً على فخذه ،
يستطيع التصرف بعضلاته كما يشاء ، ويستطيع ان يفكر في الغد
ايضاً ، وكنا نحن الاشباح الثلاثة المحرومين من الدم ننظر اليه
كأننا افاع تمتص حياته !

شعرت بالتعب وبالافعال في آن واحد . وارتدت ان لا افكر

بما سيحدث عند الفجر ، لان هذا التفكير لم يكن ينتهي بي
الا الى الفراغ . لكنني كنت كلما حاولت التفكير في شيء
آخر ارى بنادق مصوبة اليّ . ولقد عانيت مصري اكثر من
عشرين مرة . وفي احدى هذه المرات اعتقدت اني صرعت حقاً :
يظهر انني اغفيت دقيقة ، فرأيتهم يجرونني نحو الجدار وانا احاول
الافلات منهم طالباً الغفران . فاستيقظت مذعوراً وحدثت في
البلجيكي خشية ان اكون قد صرخت في غفوتي ، ولكنه كان
يقتل شاربيه دون ان يبدو عليه ما يشير الى انه قد انتبه الى
عذابي .

وكان في وسعي ان انام لو عمدت الى ذلك ، اذ كنت
مجهداً بعد سهر متواصل دام ثمان واربعين ساعة . سوى اني لم
اكن اريد ان افقد ساعتين من حياة . وكنت اعلم اني ان
رقدت فانهم سيوقظونني عند الفجر ، فاتبعهم مثقلاً بالنعاس ،
واموت مضطجاً دون ان ابدى حراكاً . وما كنت لاريد
ذلك . لم اكن اريد ان اموت كحيوان ، بل كنت اريد
ان افهم . ثم انني خشيت ان تطبق عليّ الكوابيس .

نهضت وجعلت اجول في القبو طويلاً وعرضاً . ولكي
استبدل من افكاري افكاراً اخرى ، اخذت افكر في حياتي
الماضية ، مستعيداً ذكرياتي كيفما اتفق ، الجميل منها والقبيح
على السواء ، او ، على الاقل ، تلك التي كنت اسميها جميلة
او قبيحة فيما مضى من الزمان .

وبغثة خطرت للبلجيكي فكرة رائعة ، فقال :

— يا اصدقائي ، اني اتعهد ، ان سمحت الادارة العسكرية ،
بإبصال بضع كلمات منكم او ذكريات للشخص الذين
محبونكم ...

غمغم نوم : ليس لي احد !

اما انا فلم اجب .

انتظر نوم قليلاً ، ثم قال وهو يحدق بي :

— ألا تريد ان تقول شيئاً لكونشا ؟

فاجبت : كلا .

انني لا احب التبسط في الحديث ، ومع هذا فقد اخطأت
وحدثته في الليلة السابقة عن كونشا ، وما كان ينبغي لي ان
افعل . الا انني كنت احبها ، وكنت راضياً في تلك الليلة ان
افقد ذراعي بضربة فأس مقابل ان اراها خمس دقائق . ولهذا
تكلمت . لقد كانت عاطفتي اقوى مني . اما الآن فليست تساورني
اية رغبة في رؤيتها ، وليس لدي اي شيء اقله لها ، ولو اتبع
لي لما عانقتها وضممتها الى صدري . فانا اكره جسمي لانه اصبح
رمادياً ولانه ينضح عرقاً ، ولست واثقاً من انني لن اكره جسمها
ايضاً . لا ريب في ان كونشا ستبكي عندما يبلغها نبأ موتي ،
ولن تتذوق الحياة طوال شهور عديدة . ولكن ، مع ذلك ،
ان الذي سيموت هو انا .

شرعت افكر في عينيها الجميلتين العذبتين لما كانت تنظر بها الي ،
فاحس كأن ثمة شيئاً ينتقل الي منها . على اني ايقنت بان ذلك
قد انتهى ، فلو نظرت الي الآن لبقيت نظراتها في عينيها ولم تصل

الي : لقد كنت وحيداً .

وكان نوم أيضاً وحيداً ، لكن على الفرار نفسه . وكان بمتطياً حينذاك المقعد ، كمن يمتطي جواداً ، وهو ينظر اليه مبتساً ، ثم قرّب يده فلمس خشب المقعد بحذر ، كأنه يخشى ان يكسر شيئاً ، وسحبها بسرعة مرتعشاً . فقلت لنفسي : ما كنت لأتلهى بلمس المقعد لو كنت انا نوم . ومع ذلك ، فقد بدأت الاشياء تبدو لي بصورة غريبة : اصبحت اقل وضوحاً وكثافة بما كانت عليه من قبل . وكان يكفي ان ارى المقعد او المصباح او كومة الرماد ، حتى اشعر بانني على وشك الموت . ومؤكّد انني لم اكن استطيع ان افكر بموتني بوضوح ، سوى اني كنت اراه في كل مكان ، وعلى جميع الاشياء ، وفي هذا الوضع الذي صارت اليه الاشياء جميعاً اذ تراجعت ووقفت راصدة عن بعد ، بانتباه ، كأنها اناس يتهايمسون حول سرير محتضر . ان الشيء الذي كان يلمسه نوم على المقعد هو موته .

لو انبثت ، وانا في الحالة التي كنت اعانيها ، اني استطيع العودة الى منزلي باطمئنان ، وان حياتي قد سلمت ، لاستقبلت هذا النبأ بغير احتفال . فان انتظار بضع ساعات او انتظار بضعة شهور سيان لدى من فقد وهم الخلود . لم ابق حريصاً على شيء ، وغدوت من ثم هادئاً ، ولكنه هدؤ مخيف بسبب جسبي : فبعيني هذا الجسم كنت ارى ، وبأذنيه كنت اسمع ، ومع ذلك فان هذا الجسم ليس انا . انه يعرق ، ويرتجف بمفرده ولم ابق

اعرفه البتة ، وانا مرغم على ان المسه وان اراه كي اعرف كيف هو ، كأنه جسم شخص آخر . وكنت اذا ما شعرت به بعض الاحيان ، كان شعوري هذا مجرد احساس بانزلاق او تهور كهبوط الطائرة عمودياً ، او مجرد احساس بخفقان شديد في القلب . على ان هذا الشعور لم يكن ليبعثني على الاطمئنان ، لان كل ما كان يصدر عن جسدي كان له طابع قدر حقير . وفي اغلب الاحيان كان هذا الجسم يصمت ، ويقف ساكناً ، فافقد كل احساس الا احساس بشيء من الثقل ، شيء وسخ لاصق بي ، كأنني معلق بقملة كبيرة الحجم .

اخرج الطبيب ساعته ونظر فيها وقال :

— الساعة الآن الثالثة والنصف .

يا له من قدر ... لقد صنع ذلك عمداً .

لم نكن نحن قد شعرنا بمضي الوقت ، فالليل يحيط بنا مظلماً غامضاً ، بل انني لم أبق اذكر انه ابتداء . فلما قال البلجيكي ذلك ، وثب توم في الهواء ، وجعل جوارن يصرخ ، لاويلاً يديه ، متوسلاً :

— لا اريد ان اموت ، لا اريد ان اموت .

كان ينتحب ، وقد أيقنت انه لا يفكر في الموت ، ولكنه يشفق على نفسه منه .

وساورتني انا ، لحظة واحدة ، لحظة واحدة فقط ، رغبة في البكاء ... اردت ان ايضاً ان ابكي شفقة على نفسي . ولكن الذي حدث هو العكس تماماً ، فقد حدثت الصغير ببصري ، ورأيت

كتفيه الهزيلتين الناصبتين ، فأحسست انني لم أبق انساناً ، ولم أبق
استطيع الاشفاق على نفسي او على الآخرين ، وانما اردت ان
اموت بالحاح .

نهض توم فجلس تحت الكوة المفتوحة في سقف الغرفة ، وأخذ
ينتظر ضوء النهار . اما أنا فكنت قد نصبت لنفسي هدفاً . لقد
رغبت في الموت ولم أبق افكر الا بهذه الرغبة . ولكن منذ حدد
الطبيب الوقت ، بدأت اشعر بالعرق ينصبب مني قطرة قطرة .
وكان الليل ما يزال مخيباً لما سمعت صوت توم يقول :

— هل تسمعهم ؟

— أجل .

كان الجنود يسرون في الساحة ...

وبعد قليل اصبح القبو رمادياً كله ، وسمعنا طلقات نارية بعيدة .
قال توم : لقد بدأوا . ويبدو انهم يقومون بذلك في الساحة
الحلفية .

وطلب من الطبيب ان يعطيه لفافة تبغ . أما انا فلم تكن بي
رغبة في اللفائف او في الكحول .

ولم ينقطع اطلاق النار بعد ذلك ، فقال توم :

— أسمع ؟

وأراد ان يضيف شيئاً آخر ، لكنه التزم الصمت ونظر الى
الباب ، فاذا بالباب يفتح ويدخل ضابط واربعة جنود ، فوفعت
اللفافة من بين اصابع توم . ونادى الضابط :

— ستينبوك !

فلم يجب نوم ، لكن الطبيب أشار اليه ، وتابع الضابط :
- جوان ميربال !

فقال البلجيكي : انه ذلك الجالس هناك .

امر الضابط جوان بالوقوف ، لكنه لم يتحرك ، فأمسك به
جنديان من ابطيه وانفضاه ، الا انها ما كادا يتخليات عنه حتى
تداعى الى الارض . فتردد الجنديان لحظة ، وقال الضابط :

- انه ليس اول من يتهدم هكذا . يجب ان تحملاه انما
الاثنان ، وسنرى فيما بعد ما نحن صانعون .

واتجه نحو نوم فأمره بمغادرة الغرفة ، فسار بين الجنديين الآخرين ،
بينما الاولان يحملان جوان من ابطيه وقدميه ، ولم يكن مغنى
عليه ، بل كانت عيناه مفتوحتين والدموع تسيل منهما على خديه .
ولما اردت الخروج بدوري اوقفني الضابط قائلاً :

- هل انت اييتا ؟

- أجل .

- انتظر هنا . ستدعى بعد قليل .

بعد ساعة جاء بعض الجنود لاستدعائي ، وقادوني الى حجرة في
الطابق الاول ، خيل اليّ ان حرارتها مرهقة لا تطاق . وكان
هناك ضابطان يستويان على مقعدين وثيرين وهما يدخنان ، وعلى
ركتبتهما بعض الاوراق .

- هل أنت اييتا ؟

- نعم .

— ابن رامون غريس ؟

— لا أعلم .

كان الشخص الذي يستجوبني قصيراً بديناً ذا عينين قاسيتين
تعلوها نظارتان ، فقال لي :

— اقرب .

ولما دنوت منه بادرنى بقوله :

— في وسعك ان تشتري حياتك بحياته . اننا نطلق سراحك

اذا اخبرتنا اين هو .

خطر لي ان هذين الرجلين العسكريين اللذين ينتعلان الجزمات
ويقبض كل منهما على سوط من جلد ، سيموتان ، بعدي قليلاً ،
ولكن ليس بعدي كثيراً ، ومع ذلك فهما يهتان بالبحث عن اسماء
بعض الاشخاص في اوراقهما ، وبلاحقة اشخاص آخرين لسجنهم أو
لقتلهم ، ولهما آراء غريبة في مستقبل اسبانيا ومسائل اخرى .
وبدت لي مشاغلها الحقيرة مثيرة وكريهة ، وتمت في سري :
« يستحيل عليّ ان اضع نفسي في موضعهما ، او خيل اليّ انها
مجنونان لا ريب في جنونهما .

كان الرجل القصير البدين ما يفتأ يحدجني ببصره ، وهو يضرب
جزمته بسوطه ، ولاحظت ان جميع حركاته كانت مصطنعة ومقصودة
لاعطائه هيئة وحش مفترس .

— اذن ؟ هل فهمت ؟

— انني لا أعرف ابن رامون غريس ، كنت احسب انه

في مدريد .

رفع الضابط الثاني يده الشاحبة بغير مبالاة . ان هذه اللامبالاة مقصودة ايضاً . لقد كنت ادرك جميع حيلها ، وأدهش من وجود اناس يشغلون انفسهم بهذه الصغائر .

قال لي الضابط الثاني بتمهل :

— لديك ربع ساعة تفكر فيها . خذوه الى مخزن الثياب وعودوا به بعد ربع ساعة ، فاذا أصر على الانكار بعدم فوراً . كانوا يعرفون ماذا يصنعون : لقد قضيت الليل تحت وطأة الانتظار ، ثم جعائوني أنتظر ساعة اخرى في القبو بينما كانوا يعدمون نوم وجوان . والآن يرساونني الى مخزن الثياب لأنتظر ايضاً . لا ريب في أنهم قد دبروا خطتهم هذه منذ المساء ، قائلين ان الاعصاب تنتهك بهذه الطريقة ، فيتسلمونني محطماً ذليلاً .

ولكنهم كانوا مخطئين .

جلست في مخزن الثياب على طاولة صغيرة ، وطفقت افكر . ولم افكر في اقتراحهم طبعاً . والمحقق اني كنت أعرف اين رامون غريس ، فهو مختبئ عند أبناء عمه على بعد اربعة كيلو مترات من المدينة . وكنت واثقاً من انني لن أدلهم على مخبئه . كان ذلك مقررأ لدي نهائياً ولا يشغلني التفكير فيه . الا اني أردت ان افهم حقيقة الاسباب التي تحملني على انتهاج هذا المسلك . لقد كنت افضل الموت على ان اسلم غريس ، فلماذا ؟ انني لم ابق احب رامون غريس ، فان صداقتي له قد ماتت قبل الفجر بقليل ، لما مات حبي لكونشا وتلاشت رغبتني في الحياة . لا شك في اني كنت ما ازال احترمه فهو رجل صلب . سوى ان ذلك لم يكن

سبباً كافياً لأن اموت مكانه ، فان حياته ليست اكثر قيمة من حياتي ، بل اني لم ابق ارى لأية حياةٍ كانت قيمةً ما . سيوضع رجل امام جدار ، ويطلق عليه الرصاص حتى يموت ، ولئن يكن هذا الرجل أنا أو غريس أو شخصاً آخر ، فالأمر سواء . كنت اعرف جيداً ان رامون غريس اكثر مني افادة لقضية اسبانيا ، على اني ما كنت لاحسب انه قد بقيت عندي لهذا الامر ايضاً اهمية كبرى . ومع ذلك ، فان في وسعي ان انقذ حياتي اذا سلمته ، ولكنني آتي ان اصنع ذلك ! لقد بدا لي الامر مضحكاً وتصورت انه عناد محض ، وتساءلت أينبغي للمرء ان يكون عنيداً هكذا ؟ وغمرتني غبطة غريبة .

جاء الجنود وأعادوني عند الضابطين ، فقال القصير البدين منهما :
— والآن قل ، هل فكرت في الامر جيداً ؟
كنت انظر اليهما بفضول كما ينظر المرء الى حشرات فادوة الوجود فقلت لهما :

— انا اعرف اين هو . انه يختبئ في المقبرة ، او في احد الاقبية ، أو في كوخ حفاري القبور .

قلت ذلك لأضحك منها . فقد أردت ان اراهما ينهضان ، فيشدان جزمتهما ، ويصدران الاوامر بهيئة جدبة حازمة . واذا بهما يشان واقفين على اقدامهما ، ويصرخ القصير البدين بصاحبه :

— هيا بنا الى هناك . اطلب يا مولز خمسة عشر نفرأ من الليوتنان لوبز .

ثم اتجه نحو قائله :

— اذا كنت قد قلت الحقيقة فسأبر بوعدي لك ، اما اذا كنت قد هزأت بنا فالويل لك .

ذهبا في جلبة عظيمة ، وبقيت انتظر وادعاً في حراسة الكتائبين . وكنت ابتم من وقت لآخر ، اذ أتصورهما وهما جادان في عملهما ، ثم افكر في الحيلة التي تنتظرهما ، وما سيكون لها من أثر في نفسيهما . كنت مغتبطاً لشعوري بأني قمت معهما بعمل خبيث .

وبعد نصف ساعة عاد الضابط القصير البدين بمفرده ، فأيقنت بأنه قادم لأعطاء الأمر باعدامي . ولكنه نظر اليّ دون اكتراث كبير ، وقال للكتائبين الذين يحرسونني :

— خذوه الى الساحة الكبرى مع الآخرين ، فان المحكمة ستنظر في أمره بعد الانتهاء من المناورات العسكرية .
خيل اليّ اني لم أفهم ، فسألته :

— اذن ... لن تعدموني !
— ليس الآن على كل حال . ومهما يكن ، فان الامر ليس متعلقاً بي .

فازداد الامر غموضاً لدي ، وقلت :
— ولكن ... لماذا ؟

فهر كتفيه ، واسرع الحرس فقادوني الى الفناء .
وعند المساء ، قاد الجنود الى الساحة بضعة عشر معتقلاً جديداً عرفت منهم غارسيا الحجاز ، فهتف بي :

— هذا انت ! ما كنت احسب اني سأراك في قيد الحياة
 — لقد قضاوا باعدامي ، ثم بدلوا رأيهم ، ولا ادري لماذا !
 — اما انا فقد اوقفوني في الساعة الثانية من هذا النهار .
 ولم يكن غارسيا ليعنى بالسياسة ، فسألته عن سبب توقيفه ،
 فأجاب :

— لا ادري . انهم يعتقلون جميع الذين لا يفكرون مثلهم .
 ثم همس في اذني :
 — لقد قتلوا رامون غريس .
 فارتجفت ، وسألته :

— متى ؟

فأجاب :

— هذا الصباح . لقد غادر بيت ابن عمه لأنهم عرفوا بوجوده
 هناك . وكان ثمة كثيرون يرغبون في اخفائه لديهم ، ولكنه لم
 يشأ ان يختبئ عند واحد منهم ، وقال لهم : « لو كان بابلو ايبيتا
 طليقاً لاختبأت عنده ، اما الآن فاني سأختبئ في المقبرة . »

فصرخت : في المقبرة ؟

فاستطرد : اجل . وقد ذهبوا الى هناك هذا الصباح ،
 وكان مختبئاً في كوخ حفاري القبور ، فأطلق عليهم النار
 فأردوه قتيلاً .

في المقبرة !

بدأ كل شيء يدور أمامي ، ووجدتني جالسا على الارض
 أضحك بقوة حتى لتنهمر الدموع من عيني .

عندما تنظفي الحياة

للكتاب الفنندي فرايزر اميل سيلامبا

كان ذلك في صباح باكر من اواخر حزيران ... الصيف في ذروة مجده ، والشمس تغدق نورها الوهاج على البسيطة وقد اوشك موسم الحصاد على الانتهاء . وكانت الاشياء ، التي ظلت على حالها طوال السنين ، تبدو في ذلك اليوم ، من خلال اشجار الخوخ ، حية جديدة ، كأنها تريد ان تبعث في القلوب ، مرة اخرى ، حب العمل المثمر . والنهار ، ذلك الوجه العريق الذي ما يفتأ يتلفث ويتألق منذ الأبد ، وسيظل كذلك الى الازل ، ينهض من جديد ليسيطر على الحياة ، على الحياة والموت .

عقربا الساعة ، في الحجرة الروحية المضيئة ، يقتربان من الرابعة ، والسكون عميق شامل لا تعكره الا انفاس بطيئة تتردد في زاويتي الغرفة ...

كان صاحب المنزل يرقد الى جانب الباب الى اليمين ، منقبضاً تحت الغطاء بهيئته الصارمة ، ووجهه الذي عاثت فيه السنوات . والنافذة تنشر فوق رأسه الواحها الزجاجية الستة ، واواني الزهر تجثم على حافتها الى جانب النظارات والكتاب المقدس اللذين يضارعان في القدم صاحبي المنزل ، ويبدوان كأنهما يلتزمان الدفء في هذا المكان بعينه منذ احقاب بعيدة . وفي الزاوية المظلمة من الغرفة ، يرتعش سرير الام الهزيل برهبة . ويبدو جو الكوخ الحقيق

كأنه مضغ يعطر عتيق ما تزال فيه بقية من شذا ينفذ الى الجدران وشبكة النافذة وغيرها من الاشياء ، من خلال شقوقها وصدوعها . وكان المنزل ريفياً أصيلاً ، أشبه بتلك المنازل المختارة التي يصطفها أعلام الرسم مادة لفنهم الجميل .

أفاقت الام أولاً ، ونهضت من فراشها دون ان تنظر الى الاب كي ترى هل افاق هو ايضاً ام ما يزال يغط في نومه ، اذ كانت تعرف عاداته في الاستسلام الى غفوة الصباح ، فها يعيشان معاً منذ اربعين عاماً ، ومواعيد نومهما وبقظتهما لم تتغير .

بدأت المرأة عملها المنزلي ، فملأت إبريق القهوة ماءً ووضعت على الموقد واشعلت من تحته النار ، وامتدت يدها الى طاحونة البن بجرعة لينة آتية فأخذتها من مكانها القديم الحاص ومضت تطحن . فلما انتهت من عملها ذاك ، انشأت ثوب غليان الماء ، مصيخة بسمعها الى صفير النار العذب ، ومتطلعة الى ضوء النار وهو يحبو كلما ارتفع النهار أو اتضح .

انه لجدير بأن يتتبع المرء هذه الحركة المنظمة التي تسبق تناول الافطار وتعبه ، اذ يكفي ان يراقب هذا العمل الرتيب الذي يتمثل كل يوم منذ طوال السنين ، في ساعة معينة وطريقة خاصة ، حتى تتكون لديه فكرة كاملة عن ذنبك الفلاحين العجوزين .

اجل ، لقد مر عليهما ، في قديم الزمان ، وقت كان لحياتها فيه وجه آخر ، وكانت آمالهما مقبلة زاهرة ، حتى ظنا انه لن يكون لنعيم الدهر نهاية . وفي ذلك الزمن السحيق ، حينما كانا بعيدين عن أعين الشقاء ، أنعمت عليها الحياة بمولود كان لها مدى أعوام قبلة

الرجاء وينبوع الهناء . وكثيراً ما كان ذلك الولد يروي لأبيه احلامه كأنها امور واقعة ، والاب مضطجع يصغي اليه ، وعيناه ضائعتان في الافق البعيد ، ودماغه يفكر في عمل النهار المقبل . في ذلك الوقت المقدس تناول الابوان يوماً طعامها ، وعمداً ، لأول مرة ، الى التقدير فيه ، ثم غادرا المسكن بعد ان تركا ازاء ابنها قطعة من جيد الخبر وكأساً من القهوة كي يأكلها متى استيقظ في غيابها ...

ولكن اي انقلاب بدأ في حياتها منذ ذلك النهار ؟ لقد مرت عليها بعد ذلك خمس عشرة سنة وهما يستيقظان في كل صباح ، فلا يجدان الولد العزيز راقداً في سريره على مقربة منها . منذ ذلك اليوم ، لم يبق للحياة لونها الجميل ، وغدت ساعات الصباح تمر كل نهار بطيئة متشابهة فادحة .

ولم يقتصر الامر على هذا . فهناك امر آخر كان يوجه اليهما رسائله التي تنبئ باقترابه المحتوم . وبالرغم من ان السنين قد أجهدت دماغيهما ، فقد كانا يتقبلان تلك الرسائل صابرين ، طيعين ، ويستوعبان ما تنطوي عليه من مغزى مفعج مشؤوم . ولم يكن ذلك الامر الخفي الا الموت الذي يرود حولهما ، والنهاية التي تنتظرهما ، رغم ان الصباح ما يزال ينبثق كعادته ويتألق في الآفاق . ثابته الام ، ونظرت ، بعينين أثقلها النوم الطويل ، الى افاء النبات على المائدة ، فتجلى في تلك النظرة الوانبة ضميرها كله والالام التي تفدحه ونهيمن عليه .

على ان فكرة واحدة أمضتها واستوقفتها ، ولم تكن لتستطيع

ان تقلت من نيرها لحظة واحدة : لقد تداعى الاب ولم يبق في
وسمها الاعتماد عليه ! وئمة طائف من القلق كان يعترى الاب نفسه .
فقد احتاجا في الحريف الماضي الى الخطب ، وانتظرا سقوط الثلج
كي يذهبا الى الغابة فينقلان منها ما يحتاجان اليه . وما يفتأ الاب
بتكلم عن هذا الامر ، ويخشى ان يحل بهما هذه السنة ما حلّ بهما في
العام السابق . وهو يعقد على هذه الامور العارضة أهمية كبرى ،
كأنه نسي ولدهما كل النسيان .

لقد جاء الولد الى زيارتهما منذ اعوام ثلاثة . فهو موظف في
احد المكاتب ، ويبدو أشبه ببورجوازي صغير قانع بحياته . على
انه قد تراءى لهما في زيارته الأخيرة جميلاً وغريباً ، حتى ان الام
التي لم تدرك عقليته غام الادراك ، شعرت بالضيق ، واحست انها
فقدته ، ولم تستطع ان تخفق في صدرها ذلك الشعور بالراحة
والسعادة لما غادرهما لكي لا يعود ابداً ولا يصلها بأخباره ، سوى
رسالة وصلتها في احدى اماسي الربيع الفارط من زوجته التي
لا يعرفانها ، تنبئهما بأن ولدهما قد دافع عن بلاده دفاعاً بطولياً
مجيداً ، وانه سقط صريعاً في ساحة القتال .

وما تفتأ الام ، منذ ذلك الحين ، تمسح بضع قطرات من الدمع
تبدر الى عينيها كلما ذكرته ، وتلقي في بعض الاحيان نظرات
مبهمة الى رأس الاب الاصلع كأنها تنشد منه العون ، والاب
يفط بدعة في نومه .

انها لا تستطيع وليس في طاقتها أن تفسر ما حدث ، وان
تدرك جلية الامر . فقد كان لها ولد في ماضي الزمان ، وليس لها

اليوم ولد . هذا هو الامر الذي يحيرها ، ولا تستطيع له تأويلاً ، حتى ليكاد تفكيرها فيه ان يقودها الى الجنون المطبق . الوطن ما هو ؟ انهم لا يعرفون هنا ، في هذه البقعة النائية المنعزلة ، ما تعبر عنه هذه الكلمة ، بل انهم لن يفهموها ابداً .

على ان الام كانت تفهم جيداً انها بحاجة الى الخطب ، وان الملح قد نفذ ، وان الاب العجوز سيفتقد قهوته يوماً فلا يجدها ، وان بؤسها بتضاعف يوماً بعد آخر ، وان الموت ، الذي بدت طلائعه في جو المنزل ، يتربص بها ، ويرقب قريسته بصبر عنيد .

بدر الدمع الى عيني العجوز الحراوين مرة اخرى . انها تقاسي من المتاعب ما لا تطيق ، فمتى وكيف يأتي الموت ؟ وأي جار سيرضى باعارة حصانه لنقل الجثتين الباليتين الى المقبرة ؟ وما عساه يكون ذلك الكفن الذي سيتصدق به الناس لتسجيتها به قبل وضعها في التابوت ؟

نضجت القهوة وأسرعت الام بوضع الابريق على المائدة ليبتدر قليلاً . واتجهت ، في انتظار ذلك ، نحو المقعد المزاز ، بين سرير الزوج والنافذة ، ووضعت نظارتها ، وفتحت الدرج فأخرجت منه بطاقة الميلاد التي ارسلها الابن يوماً ، وقرأتها بصوت خفيض .

كانت على يقين من ان الكهل قد افاق من نومه وأنه يسمع قراءتها ، وكانت تعرف ايضاً ما يمر في ذهنه البطيء ، وثثق من انه يشهد هو الآخر الاطياف التي تمر في مخيلتها . وكانت ذلك يعزها كثيراً .

ولما انتهت من قراءتها ، نهض الفلاح من سريره ، ثم شربا قهوة الصباح ، وعادت حلقة البؤس تدور وتدور ...

ولكن بالرغم من ان مواردهما كانت هزيلة محدودة ، فأت حياتهما لم تكن ، حتى تلك السنة ، من الضيق بحيث لا تحتل . ولم يلتبس الشيخ يوماً مساعدة احد سكان المقاطعة . وكأنا بملكان في بعض الاحيان عنزة او عنزتين ، وربما اعطتها حصتها من غلة الارض فوق حاجتها من البطاطا ، حتى ادهش ذلك جميع المجاورين . وكان صاحب الارض يحيطها بشيء من العناية ، ويقدم لها من العشب ما يكفي لغذاء العنزتين ... يصنع ذلك بلباقة ومحبة ، فلا يستشعران غضاظة ، ولا يبدو عمله لها نوعاً من الصدقة . وكان الكهل لا يقعد بدوره عن مساعدة الملاك في حصد العلف من الحقل ، فينفق كل عام شهراً طويلاً في هذا العمل المجهد ، ولكنه لا يشعر بالملل والتعب ، بل يواصل نشاطه في لذة عظيمة حتى يتلىء مخزن الملاك بالعلف .

على ان الامر قد جرى في الصيف الماضي على خلاف ذلك . كان الشيخ يمضي في عمله بخطى متثاقلة ونفس ملول ، وبخيل اليه ان عدواً خفياً يترصده ويتبعه أينما اتجه ، وان طائفاً مشؤوماً يروعه كما لو كان طائر رمادي قد جثم على كتفه ولن يبرحه ابداً . فاذا ما عثرت خطاه ، او وقع على الارض ، او ادركه التعب ، خيل اليه ان ذلك العدو يتراءى فجأة لينظر الى مظاهر عجزه بعينين تطفحان فرحاً وشماتة . وقد حاول عبثاً ان يخفي مخاوفه وأوهامه عن زوجته ، فكم عنها كل شيء ، ولكن ذلك

الدخيل كان ماثلاً امامه دائماً ، يقهقه بجنث ويكشف للآم عن حقيقة الامر .

ترأى له الصيف ذلك العام بطيئاً وطويلاً ، ولم يفكر في الشتاء المقبل خلافاً لعادته في السنين السالفة . فثمة فراغ وهيب كان يشيع في رأسه يوماً بعد آخر ، يمنعه من التفكير في اي مشروع يتجاوز نطاق اليوم الجاري . وكان يناضل نفسه في بأس موجه ، مجرباً ان يجابه ذهنه بخطاه حين يطلق خياله العنان فيقوده كما يشاء ، ولكنه لا يستطيع رغم ذلك ان يتخلص من الاعتقاد الجازم بأن حصد العشب هذا العام ليس سوى ضرب من العبث لا طائل ورائه ، مع ان العنزة ما تزال تشغو في الحظيرة كشأنها في الايام الماضية .

استيقظ الاب ذات صباح قبل زوجته . وكانت الام موقنة بأنه يشعر بألمها ، ويعرف انه لم تبق للحياة اية قيمة في نظرها منذ مات ولدهما .

والواقع ان الرجل كان يفكر في زوجته قائلاً : « ان مت فانها ستبقى وحيدة في هذا العالم ! وما تراها فاعلة اذ تفقد السبب الاخير الذي يصلها بالحياة ؟ اني لأتساءل : أيتوفر لها من الشجاعة ما يحثها على صنع القهوة كل صباح ؟ » ثم تتلاشى هذه الفكرة ، وتجري في خاطر الرجل اسئلة حائرة اخرى ، فيقول : « ماذا نصنع للحصول على حاجتنا ؟ لم يبق لدينا ما نعيش به . »

على انه لم يلبث ان قال : « لقد استقام الجو على الجلاء ، فينبغي لي ان ابادر الى الحقل ، وليس في البيت ما يستدعي

بقائي فيه . ان قوتي ستخذلني ما في ذلك ريب ! ولكن ما العمل ؟
ان العشب لا يمكن ان ينتظر ، فاما ان اسرع الى حصاده او
يفوت الموعد ... يا للشقاء !»

كان ذهن الشيخ يثب دائماً الى المستقبل . اما اليوم فهو ما
يفتأ يتلفت الى الوراء ، وها هو يزفر زفرة عميقة كأنه لا يزال
يفط في النوم ، ويفرق في ذكريات الماضي السعيد ، فيشعر بأنه
قد عاد الى الحياة ، ويسري المرح في أعطافه ، حتى انه ليطقطع
لسانه في فمه ، ويتخذ في سريره جلسة مريحة .

ولكن تلك الموجة الفائرة من الحياة لم تكن الا سحابة لم
تلبث ان تبددت حين وضعت الام ابريق القهوة على المائدة ،
واخرجت الكتاب المقدس ، وأنشأت تقرأ بعض المزامير . فقد
شعر الرجل بألم مريع يعيث في أعماقه . أيمكن ان يكون الله
قد أصبح غريباً لديه ؟ انه يصفي بغير اكتراث الى صوتها وهي
تقرأ في الكتاب المقدس ، ويلتس عبثاً تلك النشوة التي كانت
تسولي عليه من قبل . فهو لا يشعر الا بالموت يدنو منه
شراً جائعاً ... أفيأتي عليه في هذا النهار ، أم يتركه للغد ، أم
يدعه الى يوم قريب آخر ؟ انه ليتنى ان يجد في كلمات الله المعزية
ملاذاً ، فيبدو له ذلك ضرباً من المستحيل ، لأن كل كلمة تسقط
من فم الام ، كانت تزيج ستر الحفاء اكثر من قبل عن ذلك
العدو الغريب الملازم الذي يبدو اليوم في بأسه المخيف .

ومع ذلك ، فقد كان يشعر ، في سالف الايام ، بأن قراءة
الكتاب المقدس في الصباح الباكر هي اسعد لحظات النهار

وأمتعها جميعاً . وكان الكلام الالهي ينسجم كل الانسجام مع الشمس الصاعدة والعمل الذي يدعو الى الحقل كما يدعو الصديق صديقه . وكان العالم بأسره لا يعرف اموراً تنسجم وتتجاوب كما تنسجم تلك الاشياء العظيمة وتتجاوب في نفسه ، لاسباب يوم تتناول القربان المقدس .

تضاعف ألم الاب حين ذكر انها لم يشهدا في ذلك الصيف عيد الجسد . لقد وعدهما احد المجاورين لها باعارتهما حصاناً يذهبان عليه الى الكنيسة ، فلما ذهب الاب لأحضار الدابة قال له الرجل ان زوجته قد ارسلت الحيوانات الى المرعى على غير علم منه . ولما عاد الى المنزل واعلم زوجته بذلك ، أخذت تبكي وهي تنضو ثوبها الابيض المنقّل بالذكريات . ولم يحاولا الذهاب الى القرية مشياً على الاقدام ، رغم رغبتهما الملحة ، لان قواهما لم تبق تساعدهما على اجتياز تلك المسافة الشاسعة .

هكذا تداعى ذلك الامل الجميل ... ولكن من حسن الحظ ان الغد هو موعد العيد المقبل ، وهما يستطيعان ان يعتمدا هذه المرة على جيران الجار .

أقبل الرجل على تناول طعام الصباح بعيد الطرف ، مشغول الحاطر . وكانت الشمس تبدو في الأفق بطيئة مشتعلة ، فينبىء ضوءها المتوهج بأن النهار سيكون ثقیل الجو ، فادح الحر ، والاعشاب التي يجب على الاب ان يقطفها تنتصب سمراء ناضجة . ففكر في ان محصول هذا العام سيزيد على محصول الاعوام السابقة أضعاف المرات ...

تأمل الفلاح العجوز جلال النهار ملياً ، ثم خرج الى الطريق ،
ولم يلبث ان انطلق في عرض الحقل والمنجل في احدى يديه ،
ويده الاخرى تعتمد على عصا غليظة تقود خطاه المبعثرة .

وكانت حرارة الشمس تشتد شيئاً فشيئاً ، فتلسع رقبتة اليابسة
التي تشبه الرق العتيق ، ويسطع ضوءها بقوة ، فيكشف لعينيه
الكليتين كنوز الحقل والازهار التي تموج فيه زاهية عابقة .

عاد الاب الى المنزل لتناول طعام الغداء بعد ان اشتغل في
الحقل فوق طاقته ، لان الفد كان يوم الاحد ، ويجب ان
يسرع في عمله قبل ان تذوي شمس تموز سيقان الاعشاب .

اجتاز عتبة الباب خائر القوى ، لاهث الانفاس . وبالرغم من
ان الام قد اقبلت عليه لتقدم اليه معونتها ، وتحوطه برعايتها ،
فقد كانت ملامحه تعبر عن الصلابة والقسوة ، وظل يجبر نفسه الى
زاوية الغرفة من غير ان يوجه اليها كلمة واحدة . فلما بلغ سطل
الماء رفعه الى فمه بلففة ومضى يعب منه ولا يرتوي .

وضعت الام على المائدة طبق الخبز المايول ، وصحناً من
البطاطا ، وقدحاً من الحليب . وأنشأ الرجل يأكل صامتاً ، ويمسح
اطراف اصابعه بسرواله من حين لآخر ، وهي عادة لزمته منذ
كان يأكل اللحم .

أخذ يمضغ الطعام ببطء وذهول ، والشمس الحامية تستعر في
الخارج ، وتسكب على الدنيا اشعتها اللاهبة فتحرق الارض ،
وتبخر الماء ، وتذوي العشب . لا ريب في ان هذا النهار هو اشد

ايام الصيف حرارة ، فالطبيعة باسرها تضج ، وتتلوى ، وتكاد تختنق ،
والهدوء الشامل الثقيل يسود في كل مكان ، لا يعكسه الا طنين
الحشرات ، كأنك تلك المخاوف تنذب سلفاً اضمحلال الصيف
الذي تنعم اليوم بسلطانه ومجده .

وفي الافق ، من ناحية الشمال ، كانت تتجمع بعض السحب ،
ولكن الاب لا يريد ان يعتقد بأن الامطار يمكن أن تهطل في
هذا النهار . على انه يقول : « قد تمطر السماء غداً ، فتكون سبباً
آخر يمنعنا من الذهاب الى الكنيسة ، ولن يكون العيد التالي الا
بعد اسابيع ثلاثة ، حين يبدأ العمل في الحقل ، ولا يعير أحد
جواده . »

نهض من امام المائدة واتجه الى سريره وفي نفسه رغبة شديدة
في النوم . وكانت الام قد غادرت المنزل لتعيد العنزة الى
الحظيرة . وران الصمت على الغرفة ، فلم يكن يسمع سوى طنين
الذباب وتكتكة الساعة . وفي ذلك الجو الثقيل نام الاب من
غير ان يشعر .

بيد أنه لم يلبث ان استفاق مذعوراً . لا ريب في انه قد
شاهد حلمًا مزعجاً . انه لا يتذكره ، ولكنه يشعر بأنه لن
يستطيع النوم بعد الآن ... لماذا ؟ ما الذي حدث ؟ خيل اليه
انه يسمع حركة خفيفة ، فهل عادت الام ؟ ..

ولكن الصوت الذي سمعه ما زال يعلو حتى استحال الى
زجاجة تحكي قصيف الرعد !

ترى هل نام طويلاً ؟ كلا . ولعله لم ينام قط . هل كان

الصوت الذي سمعه هو صوت هطول المطر ؟ انه مجهل ذلك ،
ولكن قطرة حارة تبلل عينه ، ويشعر فجأة بأنه لم يبق يستطيع
الاحتمال ، وا- يريد ان ينفجر في البكاء !

أبكون له غداً من القوة ما يساعده على الذهاب الى الكنيسة ؟
كلا ، لا ريب في انه لن يستطيع ذلك ... ولكنه سيحصل
الاعشاب منها حدث ، فان موسم الحصاد قد اوشك على الانتهاء .
وقصف الرعد مرة اخرى ، فتساءل الاب من جديد هل
الصوت الذي سمعه هو صوت الرعد ؟ ونهض من فراشه واجتاز
الغرفة ، فلمح زوجته تدنو منه بوجهها القلق الشفوق ، وتسأله
بصوت متردد أهو في حاجة اليها ؟ الا ان حيرة الرجل كانت
شديدة ، فلم يسمع سوءالها ، ولم يجيبها بكلمة واحدة . وكان
صوت خطواته يضاعف الله ، فاسرع الى مغادرة المنزل ، ووقفت
المرأة المثقلة باهموم تشيعه بنظراتها الحزينة .

شاهد الاب في الطريق عدداً من الفلاحين يهرعون الى عملهم
في الحقول بعد ان تناولوا غداءهم . وكانت بأسه يتضاعف لحظة
بعد اخرى ، فخطر له ان يستنجد باحد هؤلاء الرجال الاشداء
لأعانتته في قطف الاعشاب ، لكنه خاطب نفسه بقوله : « كلا ،
يستحيل ذلك ، يجب ان تهتم بعملك بنفسك . »

وجر نفسه بمشقة ، فوصل بعد جهد كبير ، وبدأ عمله لاهثاً ،
وهو يوقن بأنه لن يستطيع اتمامه . على أنه شرع الحصاد بنشاط
وسرعة أذهلتاه . وما هي الا فترة وجيزة حتى جهز الحزمة الاولى ،
واخذ يتلفت حواليه ليرى هل أقبلت الام لتعينه في وضع

الحزمة على ظهره . وراها تقترب من بعيد متباطئة ، فملكه
الغيظ ، وحاول ان يقوم وحده برفع الحزمة ، لكنها كانت
ثقيلة فادحة ، فلبث ينتظر .

قصف الرعد مرة اخرى ، ولكن خيل الى الشيخ هذه المرة
انه يقصف في رأسه . فاقرب من الحزمة يحاول ان يحملها ،
الا أنه اخفق وسقط على الارض خائر القوى .
وثارت في رأسه عاصفة من الخواطر :

« يجب ان يذهب غداً الى الكنيسة معها كلفه الامر . »
« كيف السبيل الى حصد العشب قبل ان يبلله المطر ؟ »
« والابن ... يا للولد العاق ، انه لم يفكر قط في ابويه . »
« ابن الأم ؟ ألا تربد ان تأتي ؟ »

على ان الأم قد وصلت ووقفت ازاءه قلقة ، مروعة ، لا
تجرأ على محادثته . وكان يبدو ان الأثنين يستشعران ألماً واحداً ،
وتطوف في رأسها خواطر متماثلة وصور متشابهة . وكانا
يفكران في ان المنزل بعيد ، والمطر يتجمع في هذه السحب
السوداء المهددة ، فكيف السبيل الى انقاذ العشب ؟

الا انها لم يستسلا الى اليأس ، فقد وثب الرجل بحمية
وحمل الحزمة بمعونة زوجته ، وسار بها خطوات خمساً مبعثرة ،
ثم هوى على الارض ، والأم الى جانبه تنتحب .

وكان ما يزال في الأب بقية من حياة فصعدها في نظرة
ضاحكة وجهها اليها ، كتلك النظرات الحلوة التي كان يلقيها عليها
منذ دهر بعيد .

يوميات ماري ماشينيف *

للكتاب الاميركي ستيفان ليكوك

استهلال :

هل نظرتم الى انفسكم في مرآة ؟ اما انا فاني احب ان انظر الى نفسي في المرآة ساعات طويلة . وكلما مرت الخادمة نينيتشكا او الخادم يعقوب ، وشاهداني اطيل النظر الى وجهي وجسمي ، حسباني مجنونة . على اني لست كذلك : انا في السابعة عشرة من عمري !

اليوم التالي :

بينما كنت اتنزه في الحديقة ، رأيت زهرة جميلة تحلم على غصن طويل ، فسألتها : أيتاح لقلبي ان يعرف الحب ؟ فأجابني بالاجاب .

ولما عدت الى المنزل رأيت بصلة مسحوقة على الطريق بشكل مؤثر . لكم تعذبت تلك المسكينة ! لقد خبأتها في صدري ، وتركها تنام على وسادتي طول الليل ، وبكيت من اجلها كثيراً . يوم آخر :

نفسي جائعة ، وهي تطلب الحب بالحاح . كيف لم يتفق لي حتى الآن ان احب انساناً ؟ حتى الكسي الكوفيتش الذي سأزف اليه بعد شهر لا أكاد اشعر نحوه بشيء من الحب ...

* مازضة ليوميات ماري باشكير ستيف الشهيرة .

بعد يومين :

لم يسجنوني في المنزل ؟ لم ابق اطيع ذلك . لماذا يحولون دون اقدمي على الانتحار ؟ قمت في الليلة الماضية بمحاولة جديدة للتخلص من الحياة ، فوضعت على طاولة الليل زجاجة من حامض السولفوريك . ولما انبثق الصباح كانت الزجاجة ما تزال في مكانها ، لكنني لم امت وأسفاه !

اليوم التالي :

وجدت في الطريق قرنيطة نائمة في منعطف الشارع ، وقد عبثت بها اقدام الاولاد الاشرار ، فحاولت ان اعيد اليها نضارتها . وكانت الى جانبها بيضة مكسورة . فبكيت من اجلها احراً بكاء .

هذا الصباح :

قلبي يحقق منذ الصباح . لقد مر رجل بمنزلنا ، ورأيت من نافذتي وهو ينحدر من الحقل الى ضفة النهر . يا لله كم كان جميلاً ! ليس هو طويل القامة مثل الكسي ، بل صغير ومدور ، مدور مثل قرنيطة امس المسكينة . كان يرتدي ثياباً مخملية ، وفي فمه غليون ، وابتسامته تضيء بحياه !

هل انا احبه ؟ لا ادري !

بينما كان يسير تحت نافذتي رميته ببرعم من الورد ، فلم يشاهده ، فالتقيت عليه حينئذ لوحاً من الصابون وفرشاة اسنان ، لكنني خطأته فظل متابعاً طريقه .

يوم آخر :

لقد وجد الحب اخيراً سبيله الى حياتي !
رأيت ذلك الرجل وكلمته . كان جالساً في الحقل يرسم لوحة
فنية ، فدنوت منه وسألته عن اسمه . اسمه ! ان قلبي ليخفق كلما
همت بكتابته . كلا ، لن اكتبه ، بل سأهمس به همساً : انه
اونود انكسيل .

ما اجل هذا الاسم !
ثم سألته : ماذا ترسم ؟ الطفل يسوع !
فأجابني : كلا ، اني أرسم بقرة .
فتأملت اللوحة من جديد ، فتحقق لي انه يرسم بقرة .
حدقت حينئذ في عينيه وقلت له :
- سيكون هذا سرّاً بيننا لا نطلع عليه احداً .
بعد اسبوع :

ما أفتاً أذهب كل صباح لرؤية اوتو في الحقل ، فأجلس الى
جانبه واحدته عما افكر فيه ، وما أقرأ ، وما أعرف ، وما أشعر به ،
وما لا أشعر به . فيصغي اليّ بهيئة الرجل الساهم الذي لا يصغي
الى شيء . اني لماخوذة بحبه ، وان نفسي قد اتحدت اتحاداً عجيباً .
اليوم :

ان اوتو قد لمسني ! لشد ما تبعث هذه الذكرى الرعشة في
جسمي . بينما كنت واقفة الى جانبه على الضفة ، احتك كمي بزر
صدرته ، فشعرت بالنار تشتعل في جسدي . سأقدم اوتو غداً
الى ابي .

اليوم التالي :

تساجر أبي واوتو ، وبلغ الغضب بأبي مبلغاً عظيماً فطرد حبيبي ، وحظر عليه دخول المنزل . لن أستطيع رؤيته بعد الآن الا على ضفة النهر .

بعد عشرة أيام :

طلب اوتو مني تذكراً ، فأعطيته احد دبابيس قبعتي ، الا انه فضل طوق الماسي . لقد فهمت المعنى الذي اراده من هذا الطلب ، فانا لديه اثنان المخلوقات ، كما ان الماس هو اثنان المجوهرات . هذا الصباح :

طلب مني اوتو تذكراً جديداً ، فأخرجت من محفظتي قطعة ذهبية ، واقترحت عليه ان نقسمها قسمين يحتفظ كل منا بقسم منها . فلم يجارني اوتو بهذا الرأي ، وآثر ان يحتفظ بالقطعة الذهبية كاملة . وقد فهمت ما اراد : ان تحطيم القطعة الذهبية معناه تحطيم حبنا ، ولذلك رغب ان يحتفظ بها كاملة كحبنا الكامل . الا ما اسمي افكاره وما احبها الى قلبي

اليوم التالي :

اعطيته قطعة ذهبية جديدة ، فأعطاني بدلاً منها قطعة من البرونز . لقد فطنت لما اراد بذلك : ان حبنا سيكون نقياً كالذهب ومتيناً كالبرونز .

أخشى ان يعود الكسي ، فيعرف اوتو ذلك ويقتله .

بعد أيام :

تحدثت الى اوتو عن الكسي ، وقلت له انني خطيبته ، فـ

يجبني باديء الامر ، كأنه خشي ان يذهب به الغضب مذهباً عظيماً . ثم هباً حقيقته ليروحل . فلما أنبأته بان الكسي لم يحضر بعد ، سكن روعه وأقلع عن الرحيل .

بعد ثلاثة أيام :

يعود الكسي بعد خمسة عشر يوماً . وقد قلت لأوتو أنه ينبغي لنا ان نتحرل ان حبنا يتطلب منا هذه التضحية ، فاقترح اوتو أن يقتلني أولاً ثم يموت جوعاً على قبوري لبشر بعذاب الحب ولذة التضحية . ألا ما أشد خلاصه لي !

بعد خمسة أيام :

أقلعنا انا واوتو عن الانتحار واعتزمنا الحرب ، فاذا ما عاد الكسي كنا بعيدين عن هذه المقاطعة . وقد اقنعني اوتو بأنه ينبغي لنا ان لا نذهب فارغي اليدين ، فانا انقل من منزلي كل يوم حقيبة مفعمة الى غرفة هذا الفارس الذي اعتزم ان يضحي براحته من اجلي . لقد نقلت كثيراً من الامتعة والاشياء الثمينة ، ثم حملت له اخيراً ، نزولاً على رغبته ، علبة المجوهرات ، وسلمته اياها ليحفظها في مكان امين . ونصحني بان استرد من المصرف المال الذي ادخرته ، ففعلت وقد اثبت اوتو انه يفيض حناناً ونبلًا ، اذ طلب اليّ اليوم ان احصل على تذكّار من ابويّ ، وقال ان خير تذكّار هو ساعة ابي الذهبية ، فوعده بان آخذها من جيبه متى نام هذه الليلة . ولسوف نسافر غداً الى حيث يقودنا الحب ، ونعيش سعيدين هائنين .

مساء اليوم التالي :

ان نفسي ممزقة لان ما كنت اخشاه قد وقع . عاد الكسي
وتشاجر مع اوتو . يا للمشهد المفجع ! كنت الى جانب اوتو
في الحقل ، فبدا لنا الكسي عملاقاً ضخماً مهدداً ، فصرخت :
— اوتو ! يا غرامي ، اذهب ولا تقتله ...

فتردد اوتو هنيهة ثم عمل بنصيحتي ، وانكم كان شريفاً بهربه !
ولكن الكسي ادركه واشتبكا في صراع عنيف . آه ، يا للمنظر
المروع ! امسك الكسي باوتو واخذ يلوح به في الفضاء كالمقلع ،
فتمزق سرواله وسقط على العشب ، وانهار الكسي عليه رفساً
بقدميه . ثم انهضه وحطم اللوحة الفنية على رأسه . وامسك
بساقه وقذفه الى النهر . وكانت اللوحة قد دخلت في رأس
اوتو فطاف على سطح الماء .

وعاد الكسي فحوي فحملني الى المنزل ، وهو يهمس في اذني
كلمات الحب ...

اية مأساة تضحج في قلبي ! سأتزوج الكسي ، ولكن صورة
اوتو ستظل ماثلة في ذهني ، اوتو المسكين الذي يطوف في النهر
داخل لوحته المثقوبة .

لا ريب في ان التيار سيحمله غداً نحو الدينبر ، قالى نهر
البوغ ، ثم الى نهر الفولغا ، فيبحر قزوين . ولكن بحر قزوين
لا يتصل ببحر آخر ، وسيظل اوتو يطوف هناك بضع سنين ...
ان قلبي لينفطر ، وعيني تنهان بالبكاء .

فهرس

٥	الناس والآخرون
٢٠	الام
٥٥	سيمون القاسي
٦٥	علم الحقد
٩٠	الغراب
٩٨	الجدار
١٢٢	عندما تنطفيء الحياة
١٣٥	يوميات ماري ماشينيف

للمؤلف

في قصور الملوك

اساطير الامم

سعد زغلول

ابراهيم لنكولن

مدحت باشا

روبسبير

جمال الدين الافغاني

شوبان

هتلر الغازي

اسرار الحرب العالمية الثانية

كما كشفت عنها محاكمة نورمبرغ

لماذا احجم هتلر عن غزو انكلترا

كيف كان هتلر يضطهد قواده

سرّ احجام هتلر عن مهاجمة اسبانيا

لماذا اعلن الحرب على الاتحاد السوفياتي

كيف نظم الجيش الالمانى الجديد

هتلر القائد الاعلى وواضع خطط الحرب

كيف انقذ موسوليني موسكو

البجارة الايطاليون ينقذون قناة السويس

لماذا احجم رومل عن دخول مصر

طيران هس الى انكلترا

اسباب تراجع هتلر عن موسكو

كيف قرر هتلر ان يموت في برلين

وغيرها من الاسرار التي كانت مجهولة حتى

ظهور هذا الكتاب ، فالتقى عليها انواراً كالشفعة

يظهر في اوائل تموز ١٩٤٧

في سلسلة (من اسرار الحرب)

التي نشرها دار المكشوف ، بيروت لبنان



سلسلة رواية وأدب وتاريخ
تصدر عن دار المكشوف
تطالع فيها الطرف قصص الحب ولروع أخبار المقربين
صدر منها :
١ - ايلويز وايلار

يصدر تباعاً :
- بودلير في حياته الغرامية
- ميسالين ، الامبراطورة المتهنكة
- باغانيني ، ساحر النساء
- ديك الجن ، الحب المفترس
- ادغار بو والنساء
- عوني في شيخوخته الحضرء

ثمن النسخة ١٥٠ قرشاً لبنانياً
متعهد التوزيع : شركة فرج الله وحي
تطلب في مصر من مكتب الكشاف للنشر ٢٧ ، شارع
الملكة فريدة - القاهرة
وفي العراق من المكتبة العصرية - بغداد